مسارات
المعرفة والدلاله

صابر الحباشه

www.darkonoz.com

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مسارات المعرفة والدلالة

مسارات المعرفة والدلالة

صابر الحباشة

الطبعة الأولى
1432هـ 2011م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2010/4/1270)

أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرس والتصنيف الأولية
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا
المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

ردمك: ISBN: 978 - 9957 - 74 - 113 - 6

حقوق النشر محفوظة

جميع الحقوق الملكية والفكرية محفوظة لدار
كنوز المعرفة - عمان، الأردن. ويحظر طبع أو
تصوير أو ترجمة أو إعادة تنفيذ الكتاب
كاملا أو مجزءا أو تسجيله على أشرطة
كاسيت أو إدخاله على كمبيوتر أو برمجته
على إسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطيا

دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع
الأردن - عمان - وسط البلد - مجمع الفحيص التجاري
تلفون: 4653877 6 962+ - فاكس: 4653875 6 962+
موبايل: 5525494 79 962+ - ص.ب 712577 عمان
الإيميل: dar_konoz@yahoo.com

تنسيق وإخراج: صفاء أبو البصل
00962 79 6507997
safa_nemer@hotmail.com

الإهداء

إلى والدتي العزيزة مورد حنان لا ينضب، وجناح
رحمة لا مثيل لها

إلى زوجتي هناء رفيقة دربي

إلى بنيتي شيماء فلذة كبدي

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تمهيد	9
التجربة التي اعدمت الزمن	11
المؤتلف والمختلف بين السببية البشرية وغير البشرية	21
المعرفة بالصورة او ما العلاقة بين الصورة والمعرفة؟	37
"الوجوه": بين احادية المعنى وتعدّده	53
الاستعارة التداولية عند فيليب بلانشيه	75
مقاربات تحليل الخطاب المحضن النظري والمريض الدلالي	81
علاقة اللسانيات بالرياضيات رهانات ام عقبات؟	87
الجسد والعقل ام العقل والجسد؟	111
الجسد في العقل	115

تمهيد

لم تزل قضايا المعرفة واللغة تثير اهتمام الباحثين، سواء عبر إجراء التجارب او إطلاق الفرضيات. ولم تتوقف اجتهادات الدارسين عن الإتيان بالجديد على مستوى المنوالات او النتائج.

ونعرض في هذا العمل عددا من الفصول، بعضها مؤلف ومعظمها مترجم، تتناول مقاربات نظرية وتطبيقية تقدم رؤى للمعرفة والفكر واللغة في تجليات مخصوصة وعلاقات محددة.

وتحاول هذه الفصول التي تهتم بمسارات النظام اللغوي وعلاقاته ضمن العلوم المعرفية: (اللسانيات والفلسفة والإبستيمولوجيا وعلم النفس والرياضيات والعلوم الحاسوبية والفيزياء،...) تحاول رصد تجليات المعرفة اللغوية في مساراتها المعرفية وفي تصوراتها النظرية كما نهتم بالعلاقات الفكرية بين الصورة والمعرفة، فضلا عن الاهتمام بإنتاج الدلالة في انماطها النظامية واحوالها الخطابية.

ولعلّ اتساع مجالات الفكر البشري في تأملاته للنواحي المعرفية في الوجود البشري على هذه البسيطة، قد جعل المقاربات التي تتناول هذه الأبعاد ما تنفكّ تثرى بالجديد الذي زادته الثورة المعلوماتية القا. وتبقى الإشكاليات الحديثة المرتبطة باللغة والمتصلة بالمنعرج الذي وسمته اللسانيات الحديثة، في حاجة إلى مزيد الانكباب على توليد المنوالات الملائمة لتحصيل إجابات اكثر

إفادة واقرب إلى الإقناع، من تلك الحدوس التي نجمت عن التصورات البنيوية والتوليدية في صيغها الكلاسيكية.

وتظل طرائق تناول هذه المباحث الإشكالية فكريا وفلسفيا وعلميا ولسانيا محطّ انظار الباحثين الذين يعيشون صدمة انقضاض التكنولوجيا الرقمية على دوائر التأمل النظري التي كانت تستخلصها فلسفة اللغة لنفسها، منذ القديم وإلى عقود قليلة مضت.

وتظلّ مجالات الحيرة والتساؤل والدهشة من المفارقات التي يشهدها البشر بين القول قبل الإنجاز وبعده، وبين الخطاب والواقع، على الرغم من تكاثر الات السيطرة على الطبيعة، محلّ تناول فكريّ لا يكتفي بالانزع التكنولوجية، بل يحاول استنباط تصوّرات وافتراضات تكون مله السمع والعين: إذ وحدها اللغة تحتفظ للإنسان بطاقات التجدّد الذاتي، بعيدا عن التشيؤ الحضاري وطغيان الات التكنولوجيا التي -وعلى الرغم من فوائدها الجمّة- امكن توظيفها سلبيا لتمارس المراقبة اكثر من وضعها الطبيعي فاتحة لابواب التحرر.

التجربة التي أعدمت الزمن

هارفي بواريه (Hervé Poirier)

إنّها تجربة تاريخية، فقد بيّن فيزيائيون يعملون في رحاب جامعة جينيف انّ إحساسنا بالسببيّة لا ينطبق على المجال الذرّي. وبعبارة اخرى، فالزمن لا وجود له في العالم الكوانطي! فكيف ينبثق في مستوانا ؟ تلك هي المسألة...

إنّه امر يخرج عن الحسّ المشترك ذاك الذي حصل في مخابر جامعة جينيف، فقد وقفوا على انّ إحساسنا المشترك بالسببيّة المكانيّة والزّمنية غير موجود من غير استثناء! فقد بيّنت ذلك التّجربة وقد صارت بعدُ تاريخيّةً. وملخّص التّجربة انّ ازواجا من عناصر صغيرة من الضّوء (فوطونات= photons) قد أُرسلت عبر الياف بصريّة تلقاء مراتين مسافة 55 مترا. ولمّا كانت المراتان شبه شفّافتين، فقد كان بوسع كلّ فوطون ان ينعكس او ان ينفذ عبرهما. والحال انّ سلوك هذه الأزواج من الفوطونات بدا متطابقا تمام التّطابق: فإمّا ان ينعكس الزّوجان كلاهما، وإمّا ان يخترقا المراتين في تناغم تامّ. والمشكل يتمثّل في عدم وجود تفسير يشرح ما الذي حصل في الزّمن كي يكون للفوطونات مثل ذلك السّلوك...

ولْنتخيّلْ انّنا نراقب شخصين يسلكان نفس السلوك، فسنقول إنّ في الأمر سرّا او إنّهما اتّفقا على ذلك مُسبقا او انّ إحداهما اخبر الآخر بسلوكه كي يُقلّده. ولا توجد طريقةٌ اخرى معقولةٌ لتفسير ملاحظة ظاهرتين متطابقتيْن: غير ان يكون الامر توافقا « مُبرمَجا » مع وجود سبب جامع في الماضي بين الظّاهرتين يحدّد سلوكهما. او ان يكون الأمر توافقا « هاتفياً »: فيؤثّر سلوك إحدى الظّاهرتين في سلوك الأخرى عبر إشارة. غير انّ هذا كلّه لم يكن حجّة لتفسير النّتائج الملاحظة والمنشورة من قبل فريق الفيزياء التطبيقيّة في جامعة جينيف[1] ومن قبل انطوان سواراز (Antoine Suarez) من مركز الفلسفة الكوانطيّة في زوريخ.

ففي التّجربة المشار إليها اعلاه، لا يمكن ان يكون تَوَافُقُ الفوطونات تُجاه المراتين مُبرمَجا ولا هاتفيّا، إذن، ما الأمر؟ الواقع انّ التّفسير الوحيد يتمثّل في كون التّوافق يتولّد...دون ان يجريَ الزّمن!

ما توقعته النظرية

علينا الاّ نأمُل ملاحظَة مثل هذه الاعجوبة في عالمنا. إنّها لا يمكن ان تحصل إلاّ في مجالات شديدة الضآلة. زد على ذلك انّ الفيزياء الكوانطية هي التي وصفتها، وهي الفيزياء الأكثر نجاعة في وصف سلوك الطّبيعة المجهريّة عموما وفي وصف الفوطونات تحديدا. والواقع انّ النّظريّة الكوانطيّة تُخمّن وجودَ ظاهرة "تعقّد" يربط قدر العنصريْن، دون ان تُعطيَ

---

(1) Nicolas Gisin ;Hugo Zbinden ;Valerio Scarani et André Stefanov.

لذلك تفسيرًا. وعلى الفيزيائيّين تدبُّر امر تأويل ذلك. والتّجربة التي أُجريت في جينيف تُحرجُهم.

بدايةً، نعلم انّ التّوافُقات لا يمكن ان تكون مُبرمجةً. ففي مقال شهير كتبه البار اينشتاين سنة 1935، وقد شعُر مُسبقا بخطر مثل هذا التّعقُّد على السّببيّة، يرى صاحب النّظريّة النّسبيّة، انّه يوجد سبب مشترك، «متغيّرٌ خفيّ» يُفسّر لماذا يكون للعناصر المعقّدة سلوكٌ متعالقٌ على تلك الشّاكلة. لكن في سنة 1964 طوّر جون بال (John Bell)، وهو فيزيائي إيرلندي يعمل في جينيف، طوّر متباينةً (inégalité) تسمح بتمييز وجود او عدم وجود علّة جامعة لهذه النّظريّة: فإذا ما اعدنا التّجربة مرّات كثيرة وائفقت الإحصاءات مع هذه المتباينة، فهذا يعني انّ التّعقد يمكن ان يفسّر بوصفه توافُقا مبرمجا، وإلاّ فإنّ مثل هذا التّفسير لا يمكن الاخذ به. وقد انجز الفيزيائي الفرنسي الان اسبيه (Alain Aspect) تجربةً تاريخيّة في معهد البصريات بأورساي (Orsay) سنة 1982 تجلى فيها اختراق متباينات بال (Bell) . ومن ذلك الحين اكّدت كلّ التّجارب المُجراة انّ توافق الفوطونات تجاه المراة لا يمكن ان تفسّرها علّة جامعة في الماضي. لا شيء يبرمجها لتنعكس على المراتين او لتخترقهما.

ولكنّ تجربة الان اسبيه (Alain Aspect) تترك فرصةً لإحساسنا بالسببيّة المكانيّة الزّمانيّة ان يبقى قائما. إذ يمكن ان يكون سلوك العناصر المعقّدة هاتفيًا إن لم يكن مبرمجا. لانّه من المستحيل الحصول تطبيقيا على تزامُن تامّ بين حدثين في المخبر: من ذلك حصول عمليّات عدم دقّة تجريبيّة لا يمكن اجتنابها: إذ ينشأ حدث جزءًا من الثّانية قبل الأخر. إذن يمكننا ان نقول دائما إنّ العنصر الاوّل الذي بلغ المراة اخبر رديفه باختياره ليتطابق معه. وبعبارة اخرى، إذا مثّلنا الفضاء بمستوى افقي

والزّمن بمستوى عموديّ، فإنّنا نجد الحدثين يحيد احدهما عن الآخر عموديًا بشكل لا يمكن اجتنابه ممّا يُؤذن حصول ائّصال "هاتفيّ" (لكي لا نقول هو ائّصال "تخاطريّ" télépathique) . هذا صحيح ولكن والحالة هذه، إذا كانت المسافة الفاصلة بين حدثين في تجربة اسبيه (14 مترا) وكان عدم الدّقة عن اللّحظة الدّقيقة حيث ينشأ الحدثان (20 جزءا من مليار من الثّانية) فإنّ حسابا سريعا يبيّن انّ فرضيّة التّواصل بين الفوطونيْن ينبغي ان تكون سرعتها ضعف سرعة الضّوء! بل وقد بيّنت تجربةٌ قام بها فريق البروفيسور جيزين سنة 1998 على مدى 10 كلم حول جينيف، انّ سرعتها ينبغي ان تكون اعلى من سرعة الضّوء بعشرة ملايين مرّة... وهو ما ترفضه نظريّة انشتاين في النّسبيّة التي تقول بأنّه لا يمكن لايّ معلومة ان تذهب اسرع من سرعة الضّوء! فهل علينا ان نخترق مبادئ انشتاين للمحافظة على السّببيّة الزّمنيّة؟

أجهزة تتحرك

ومع ذلك برهن الان اسبيه ذاته انّنا لا يمكن ان نستعمل هذه الإشارة المشكوك في امرها بين العناصر المعقّدة لنقل الطّاقة او المادّة او المعلومات. بذلك يمكن الاخذ بتعايش سلميّ بين الميكانيكا الكوانطيّة ونظريّة النّسبيّة. ومن ثمّة نعتبر بوضوح انّ التّعقّد توافُقٌ هاتفيّ. وقد قال اسبيه منذ اربع سنوات «لا اكاد اتمثّل هذه الصّلة ان تكون امرًا اخر غير ضرب من التّوافق اللّحظيّ (الفوري)، حتّى وإن اقررت بأنّ هذا التّوافق يختلف عن سائر التّوافُقات المعهودة » [أنظر مجلّة "علم وحياة" الفرنسيّة، العدد 980، صفحة 171]

ولكنّ التّجربة التي أُجريت في جينيف، جاءت لتُحطّم هذه الطّريقة في النّظر والتّفسير. وهو الأمر الذي ظلّ انطوان سواريز يرجو تحقيقه طيلة عشر سنوات. وقد التقى سواريز - وهو المختصّ في الفيزياء والإبستيمولوجيا - بجون بال مرّات كثيرة في جينيف قبل وفاته بسنوات قليلة. ولقد احتفظ سواريز بودّ عميق للرّجل كما ابدى اهتماما بالغا بمسألة التّعقد. وقد أوحت له تلك المسألة بفكرة بسيطة: أن يعيد تجربة اسبيه ولكن باستعمال أجهزة وهي تتحرّك! في الواقع، حسب نظريّة انشتاين، تتغيّر بنية الزّمان والمكان اثناء الحركة داخل المخبر بما هو مرجع ثبت وينحني محورًا الزّمان والمكان لجهاز يتحرّك، ممّا يُزيح ساعته الخاصّة. فلكي يفقد التّعقّد الكوانطي مفهوم النّظام الزّمني، يكفي ان تتباعد المراتان واللّواقط المستعملة في التّجربة سريعا في اتّجاهات متقابلة: فكلّ فوطون اثناء عمليّة اختياره إمّا اختراق المراة او الانعكاس عليها، حسب مرجعيّته الخاصّة، يكون متأكّدا انّ الفوطون الآخر مازال لم يقم بعمليّة الاختيار تلك!

فلا احد بإمكانه الزّعم انّه اخذ في الاعتبار اختيار شريكه...

ولا اتّصال ممكنا هنا بينهما اللّهم إلاّ إذا تخيّلنا تواصلا يمكن ان يتعالى عن الزّمن، ولكن في هذه الحالة لن يكون لنا شيء يمكن لنا تفسير ذلك به في هذه الحياة الدّنيا...

·تجربة...ميتا ـ فيزيقية

هدف هذه التّجربة إذن هو معرفة ما إذا كان التّعقّد يبقى موجودا حتّى عندما لا يكون للعناصر الوقت للائصال. ويؤكد انطوان سواريز انه «إذا

كانت الميكانيكا الكوانطيّة قد توقّعت ذلك، فإنّه لا توجد تجربة تسمح بمعرفة ذلك. وإنّ الفكرةَ المُسبَقةَ القائلةَ إنّ السّببيّة تنتمي دائما إلى الزّمن، لُمنتقشة في ذهني انتقاشًا بحيث ارى انّه توجد امامنا فرصةٌ حقيقيّة لتخطئة الميكانيكا الكوانطيّة وذلك للمرّة الأولى!» وفي ضرب من الاستشراف، اقترحَ هذا الفيزيائي (سواريز) نظريّة بديلة تُدعى "التّزامن المتعدّد" (multi simultanéité) تُطابق الميكانيكا الكوانطيّة تمامَ المُطابقَة، إلاّ انّها تراعي السّببيّة الزّمنيّة في التّعقّد وتتنبّأ بزوال التّوافُقات عندما تكون هيئةُ الأجهزة (المستعملة في التّجربة) هيئةً لا تسمح بالائصال في الزّمن.

ولكن ما حصل كان هو العكس تماما! فقد اقنع انطوان سواريز سنة 1992 مارسال أُديي (Marcel Odier) -وهو مصرفيّ سويسري يهتمّ بالاستلزامات الميتافيزيقيّة للنّظريّة الكوانطيّة-، اقنعه بتمويل تجربته بمبلغ 450 الف فرنك سويسري (حوالي300 الف اورو) : إذ طفق سواريز يبحث عن فريق في الفيزياء التّجريبيّة، فعثر بشكل طبيعي على فريق البروفيسور جيزين الذي استقرّ في جينيف وتحصّل على الرّقم القياسي العالميّ لمسافة إرسال الفوطونات المعقّدة تلقاء مرايا شبه شفّافة.

ويتذكّر نيكولا جيزين: «لقد كنّا جميعا متحمّسين لمبدإ التّجربة وقرّرنا فورًا وضعها حيز التّطبيق». ومع ذلك فقد كانت المشاكل التقنية هائلة: فمع مسافة قصوى بـ 10 كيلومترات بين الأحداث المتوافقة، ينبغي أن تُرسل الأجهزة بسرعة ساوي إقلاع طائرة لكي تكون في هيئة ملائمة... فكيف نجعل هذه الشّروط قابلة للاحتساب مع ضرورة التدقيق الذي تحتاج إليه التّجربة الكوانطيّة؟

ولمّا لم تتوفّر للفريق السّويسي وسائلُ ضخمةً، فقد عوّلوا على التّخيُّل: ذلك انّ الميكانيكا الكوانطيّة لا تقول لنا إن كان اختيار الفوطون يقع لحظة

التقانه بالمراة او بعد ذلك اي عند التقاطه. للوهلة الأولى، قرّر الفيزيائيّون القيام بتجربتين إحداهما مع اللّواقط المتحركة والأخرى مع المرايا:

• الحالة الأولى هي الأبسط:

إذ يستعمل الفيزيائيّون قُرصا يدور حول نفسه بوصفه لاقطًا وعلى شريحة منه تأتي الفوطونات عبر الياف بصريّة. وتبدو الهيئة سابقةً جدًّا مع مسافة 10 كيلومترات بين الجهازين وحيث تكون سرعة دوران القرص 10 الاف دوْرة في الثّانية: ففي مرجعه الخاصّ، يرى كلّ جهازٍ رايَ المقتنعِ انّه هو الاوّل في التقاط عنصره. وخلال التّجربة التي قام بها سنة 1997 هوغو زبندن (Hugo Zbinden) وفولغانغ تيتل (Wolgang Tittel) فقد كانت النّتيجةُ مذهلةً: فقد ظلّت ظاهرة التعقّد موجودة.

• بقيت الحالة الأصعب:

وتتمثل في جعل المرايا تتحرّك. ويروي نيكولا جيزين، قائلا: «لقد فكّرنا في البداية في استعمال مَرايا ثقيلة، بيد انّ فكرةً عنّت بخَلَد هوغو زبَنْدن تتمثّل في استخدام الموجات الصّوتيّة ». لقد كانت فكرةً ممتازة. ذلك انّ موجةً صوتيّة في كنس تتفاعل مع الضّوء، مثل تفاعُل مراة شبه شفّافة: نصف الفوطونات انعكس، في حين اخترق النّصفُ الآخر. اكثر من ذلك، لمّا كانت سرعة الانتشار بالنّسبة إلى هذه الموجات (9 الاف كيلومتر في السّاعة)، فإنّ التّجربة يمكن أن تتمّ داخل مبنىً الجامعة...واندريه ستيفانوف (André Stefanof) الذي يُعدّ اطروحته ضمن فريق جنيف هو الذي سيضطلع بتلك التّجربة. ولدعم كلّ ذلك، انجز الفيزيائيّون تجربةً اخرى بتقريب المرايا واللاّقطات مكان إبعادها. فلم تعد هنالك هيئة «سابقة جدّا» مقترحةً بل هي

هيئة «متأخّرة جدًا»: فكلّ فوطون مقتنعٌ عندَ اختياره انّ شريكه قد اختارَ بَعْدُ الانعكاسَ او الاختراق فهو من المفترض ان يتطابق مع شريكه! فكلاهما ينتظر اختيارَ الآخر... ومن ثمّة لا احد منهما يختار.

الفشل الناجح

ويتذكّر انطوان سواريز، قائلا: «صباح الثّاني والعشرين من شهر يونيو 2001 فشلت النّتائج الاولى، ولقد اعتراني شُعور مَن يُشَيّع جنازة نفسه إلى مثواها الاخير، فالتّعقّد الكوانطي بقيض موجودًا وهو ما ينبت النّظريّة الكوانطيّة ويدحض نظريّتي في التّزامن المتعدّد (multi simultanéité) . ولكن بعد ذلك بقليل، عندما فهمتُ انّ هذا يدحض السّببيّة الزّمنيّة، احسستُ برضىً عميق. اخيرا، لقد تجاوبت معنا الميكانيكا الكوانطيّة». ذلك انّه ينبغي حسم الامر فالسّببيّة المكانيّة والزّمانية ناجعة جدًا لفهم عالَمنا ولكنّها مع ذلك لا يسعها ان تفسّر لماذا تسلك الفوطونات هذا السّلوك تُجاه المرايا، والحال انّها[اي الفوطونات] لم تتّفق مُسبَقًا على السّلوك المستقبليّ لها كما انّها لم تتبادل إشاراتٍ عند اتّخاذها قرار الاختيار. ويستخلص فاليريو سكاراني (Valerio Scarani) مُنظّر فريق جينيف قائلا: «إنّ التّعقّد لا يُراعي ايّ ساعةٍ » ويواصل انطوان سواريز قائلا: «هذه النّتيجة لها اهميّة ثقافيّة كبرى. لقد بيّنت تجربة اسبيه (Alain Aspect) لا مكانيّةَ التّعقّد الكوانطيّ، فالعناصر تتصرّف كما لو انّه لا توجد مسافات فيما بينها. ولكن ذلك ليس سوى نصف الحقيقة فتجربتنا التي قمنا بها تبيّن لا زمانيّة هذه الظّاهرة. ثمّة تبعيّة لا تُطابق ايّ نظام زمنيّ. إنّ

العالمَ الكوانطيّ لا يمكن ان يُحدّد باعتماد الفاظ "قبل" و"بعد" ثمّة اشياء تقع، لكنّ الزّمن ذاته لا يمرّ».

إنّها ليست تجربة فيزيائيّة تلك التي جرت في جينيف، بل هي اكثر من ذلك، إنّها تجربة ميتافيزيقيّة: في مدينة صناعة السّاعات، توقّف الزّمن لحظةً !•

• المصدر: Science & vie, n°1024, Janvier 2003 p-p36-43

مجلة علم وحياة، العدد 1024، يناير، 2003، من صفحة 36 إلى صفحة 43.

المؤتلف والمختلف

بين السببية البشرية وغير البشرية[1]

آن روبول[2]

مقدمة

إنّ اضطلاع السببية بدور مركزيّ في المعرفة البشرية وغير البشرية ليس امرا محلّ نقاش. ولكن ما يمكن ان يناقش بالاحرى هو هل إنّ "السبب" يدلّ على الشيء ذاته في المعرفة البشرية وغير البشرية. او بعبارات فلسفية اكثر، إسناد اعتقاد سببيّ مشترك – نحو "نزول المطر،؟ سيسبّب عدم خروجي في النزهة مع الأمّ" – إلى الكلب ماكس وإلى البنت مريم ذات الأحد عشر عاما، هل يكون ذا معنى؟ إنّ نظرة سطحية تقوم على سلوك متماثل، مع الفارق، تجعلنا نظنّ انّ الأمر صحيح: مريم تقرأ كتابا وماكس نائم على الأريكة، وكلاهما يلقي نظرة سوداوية نحو زجاج النافذة

---

(1) Anne Reboul, Similarités et différences entre la causalité humaine et non humaine. http://www.interdisciplines.org/causality/papers/1

(2) باحث لسانية مهتمة بتطور اللغة واكتساب الأطفال لها.

الذي غمرته الأمطار. إنّ السؤال، في مستوى اعمق، يتمثل في معرفة ما إذا كان الاعتقاد السببيّ عند مريم يعني اكثر من مجرّد ارتباط بين المطر وغياب النزهة، وإذا كان الأمر كذلك، هل يمكن ان ننسب هذه السمة الإضافية إلى اعتقاد ماكس السببيّ بشكل مشروع. إذ يمكن ان يكون لمريم تفسير ذهنيّ [تفهم] بمقتضاه انّني اعتقد انّ المطر تبلّلني، وانا لا اريد ان اتبلّل، وهو ما يجعلني أختار البقاء داخل البيت. هذا التفسير، كما يمكن أن نرى، ليس شيئا يمكن ان ننسبه إلى ماكس بشكل معقول. فهل يمكن لنا ان نقول بالضبط ما هو الفرق بين الاعتقاد السببيّ المنسوب إلى مريم وذاك المنسوب إلى ماكس؟ يبدو لي انّ الفرق يقوم على كون مريم لها تفسير للترابط، في حين انّ ماكس نو ترابط، هكذا، خالٍ من التفسير. بل إنّ ماكس ليس معنيّا بأن يكون ثمّة تفسير، بل لا يمكن له ان يُعنى بذلك اصلا، امّا مريم فلن ترضى، وما ينبغي لها ان ترضى، عن ارتباطٍ يخلو من التفسير.

ورغم انّ اعتبار الاختلاف بين المعرفة السببية البشرية وغير البشرية قائما على وجود التفسير في الأولى وغياب التفسير في الثانية، هو اعتبار يمكن ان يكون مغامرة، فإنّه الموقف الذي اقول به في هذا السياق، بل انهب ابعد من ذلك واقول إنّ الترابط يتمّ اساسا بين كيانات مُلاحظة، في حين انّ التفسير غالبا ما يذهب إلى ما وراء ما هو ملاحظ كما هو الحال في حالة التفسير الذي تقدّمه مريم لعدم اصطحاب امّها إياها في نزهة تحت المطر) .

وكما لاحظ هيوم (Hume 74،1975)، " تبدو جميع الأحداث مستقلة إنّها تبدو مقترنة ولكنّها ليست مترابطة البتّة". ويستنتج هيوم من هذه الملاحظة الأساسية حول إدراكية الترابط والخاصية غير المدرَكة للرابط

السببيّ، عدمَ وجود ذلك الرابط السببيّ، ولكنني لا اهتمّ، ههنا بهذا الإثبات الميتافيزيقي[1].

هل البشر حيوانات ترابطية

لقد اثبتتُ، اعلاه، انّ المعرفة السببية عند البشر ليست او ليست فقط ترابطية. ويمكن ان يُفهم (وقد فُهم) هذا الإثبات بطريقة مختلفة. إذ يميّز بريماك (Premack,1995) بادئ ذي بدء، بين المعرفة السببية الاعتباطية (CCA)، الناتجة عن التعلّم الترابطيّ – والتابعة للتجاور والتكرار – والمعرفة السببية الطبيعية (CCN)، الشديدة الاختصاص في الميدان قَبْليًا والمستقلّة عن التجاور والتكرار. وثمّة طريقة اخرى لمباشرة هذا التمييز تتمثل في القول إنّ المعرفة السببية الاعتباطية (CCA) تتأسّس على الاستقراء، في حين انّ المعرفة السببية الطبيعية (CCN) يمكن ان تفيد اساسا في الاستنتاج. وتتصل المعرفة السببية الطبيعية عند البشر بعلم النفس الساذج والفيزياء السانجة والبيولوجيا السانجة. ويصعب، إن لم يكن مستحيلا، ان ننسبها إلى حيوانات غير بشرية. فمن جهة كونها لا تتأسس على التعلّم الترابطيّ، فإنّها تعلّل إثباتي بشكل محقّق. ومع ذلك فإنّ المعرفة السببية الطبيعية ليست موضوعي ههنا.

---

(1) يرى هيوم انّ السببية التي لا توجد في الواقع. إن هي إلاّ إسقاط للفكر البشريّ على الواقع. انظر بيار جاكوب، فصل القانون، في الإبستيمولوجيا، الموسوعة الكونية الفرنسية) (Pierre Jacob, loi (épistimologie), in Encyclopaedia Universalis). (المترجم)

سـأركّز علـى المعرفـة الـسببية الاعتباطيـة، وفي مـا يتـصل بهـا، توجـد إمكانيتان:

1. تركّز المعرفة السببية الاعتباطية (CCA) فقط على التعلُّم الترابطيّ عند الحيوانات البشرية وغير البشرية:

2. لا تكتفي المعرفة السببية الاعتباطية (CCA) بأن تركّز على التعلُّم الترابطيّ عند الحيوانات البشرية وغير البشرية.

وهذا يطرح مشكلة اخرى لها علاقة بالسبب الذي يجعل الترابط غير كافٍ بالنسبة إلى المعرفة السببية الاعتباطية (CCA) عند البشر. وفي النهاية، إذا كان الترابط ملائما للحيوانات غير البشرية، لماذا ليس كافيا للبشر؟ كما يوجد سؤال اخر واضح يتعلّق بتعريف التفسير.

أرى أنّ الجواب على هذين السؤالين يمرّ عبر كون البشر هو الجنس الوحيد المتكلّم. وسأخصص ما بقي من هذه الورقة لمراجعة مختصرة لأعمال تجريبية تحاول بيان أنّ الترابط ليس العامل الوحيد للمعرفة السببية الاعتباطية (CCA) البشرية وسنحاول النظر في بعض الافتراضات، التي أعترف بطابعها النظريّ، حول دور اللغة في الاختلاف بين المعرفة السببية الاعتباطية (CCA) البشرية وغير البشرية.

وكي نبدأ بنقطة مركزية في الأدبيات الفلسفية المعاصرة حول السببية[1]، نقول إنّه توجد صلة قويّة بين التفكير الافتراضيّ (contrefactuelles) والتفكير

---

(1) تمّ اختبارها تجريبيا الأن، انظر روز 1994، وروز واولسن1996، 2003، وبنينغتن وروز 2003 cf. Roese1994, Roese & Olson1996,2003, Pennington & Roese2003

السببيّ. فحسب تيار فلسفيّ رائج، نجد انّ التلفّظ بـ" س تسبب في ط" يوافق التلفّظ بالافتراضين "إذا حدث س، فإنّ ط سيحدث" و"إذا لم يحدث س، فإنّ ط لن يحدث"[1]. ومع ذلك، ورغم انّه من المعقول انّ التفكير الافتراضيّ بشريٌ بشكل خاصّ، فإنّ تعليل الصلة بين التفكير الافتراضيّ والتفكير السببيّ في رؤية للمعرفة السببية البشرية ترى بأنّها اكثر من الترابط ليس تعليلا واضحا. والواقع انّ التفكير الافتراضيّ يهتمّ عموما بالأحداث المترابطة اكثر من التفسير. إنّه يمثّل غالبا فكرة الرابط الضروريّ الذي يمكن ان يكون النقطة الأولى للاختلاف بين الحيوانات البشرية وغير البشرية. ولكنّه (اي التفكير الافتراضيّ) ليس تفسيرا في حدّ ذاته. ولْنعُد إذن إلى السؤال الأوّليّ: ما هو التفسير؟

لقد حان الوقت لإدخال تفريق اقترحه فالدمان (Waldmann,2000,2001) بين تعلُّم تنبُّؤيّ (prédictif) وتعلُّم تشخيصيّ (diagnostique) : فالأوّل يمرّ من السبب إلى النتيجة امّا الثاني فيمرّ من النتيجة إلى السبب. ومن بين خصائص التفسير انّ له اتّجاها نحو التعلُّم التشخيصيّ. مع انّ فالدمان يذهب ابعد من هذا التفريق البسيط قائلا بأنّ منوالا ترابُطيّا صرفا، لا يمكن ان يهتمّ بمجموع التعلُّم السببيّ الاستقرائيّ – التنبّؤيّ والتشخيصيّ في الوقت ذاته – لأنّه (اي المنوال الترابُطيّ الصرف) لا يبالي اصلا باللا تناسق السببيّ القائم لا على اسباب ونتائج[2]، بل على مؤشّرات وحصائل[3]، ويمكن ان تكون المؤشرات والحصائل إمّا اسبابا او نتائج على السواء. وقد بيّن فالدمان انّه

---

(1) Pierre Jacob, loi (épistimologie), in Encyclopaedia Universalis.

(2) اسباب ونتائج = causes et effets

(3) مؤشرات وحصائل = indices et résultats

حسب انتماء مهمّة مّا إمّا إلى التعلّم التنبّؤيّ او إلى التعلُّم التشخيصيّ، فإنّ بعض النتائج المعروفة للتعلُّم الترابطيّ (مثل الاعتراض[1] والحجْب[2]) لا تعمل بطريقة متطابقة. بعبارة اخرى يلعب الاتجاه السببيّ دورا في التعلُّم السببيّ، على النقيض مما تتنبّأ به المناويل الترابطيّة.

وقد ذهب مجموعة من الباحثين[3] ابعد من ذلك إذ دافعوا عن رؤية اكثر تجريدا للمعرفة السببية ترتكز على منوال شبكة بايزية (bayésien) [4] وبيّنوا انّ البشر يعتمدون على مقولات سببية مجرّدة (مثل الأسباب والنتائج المتعدّدة، السلسلة السببية) لتعلُّم العلاقات السببية.

وهذه هي العلامة الأولى على كون المعرفة السببية الاعتباطية لا تعتمد فقط على الترابط. ومع ذلك، فإنّ المنوال البايزي الذي اقترحه فالدمان وزملاؤه يعتمد بشكل قويّ دائما على التغير المشترك للاسباب والنتائج. وينجم عن ذلك سؤال عن معرفة ما إذا كان التغير المشترك هو حقّا العامل المركزيّ للتعلّم السببيّ البشريّ. وقد فحص دنيس واهن (Dennis & Ahn, 2001) اثر الترتيب في الحكم على العلاقات السببية، بعرْضهما على الأشخاص المختَبَرين معطيات متطابقة من حيث التغيّر المشترك، ولكنها مرتّبة ترتيبا اخر.

---

(1) blocking

(2) overshadowing

(3) Waldmann & Hagmayer1998, Waldmann & Meertignon1999, Hagmayer & Wadmann 2004.

(4) عثرت على هذه الكلمة في فصل المنهج (méthode) في الموسوعة الكونية الفرنسية (E.U) وقد ألّفه جون لارغوه (Jean Largeault)، يقول: " لاحظ بريستلي (Priestley) دور الافتراض وادخل خطاطة بايزية للتقاربية نحو الصحيح عبر التخمينات المتتالية: تخمين، تجربة، تحسين التخمين". [المترجم]

لقد وضّحا التأثير القويّ للاسبقية، وهو ما يعني انّ التغيُّر المشترك ليس العامل الوحيد للتعلُّم السببيّ وانّ نظام مراجعة العقائد يمكن ان يكون عاملا اخر. ويمكننا ان نجد تعليلا غير مباشر لهذا الافتراض في العمل التجريبيّ للوفيبوند (Lovibond,2003) – وقد استعمل نموذجا بسيطا للخوف الإشراطيّ عند البشر– إذ بيّن انّ المناويل الترابطيّة يمكن ان يعاد تأويلها بشكل مفيد بوصفها تُشكّل تعلُّمًا قضويًا واستدلاليًا، بما انّ الخوف الإشراطيّ عند البشر يعمل بشكل مختلف مع مُثيرات مائيّة او مع تعليمات لسانيّة. وقد انجز اهن وزملاؤه (Ahn,1995) تجارب مفيدة اخرى حول الأثر الحاسم للمعلومة في التغيّر المشترك بالنسبة إلى الأثر الحاسم للمعلومة في الآليّة في الإسناد السببيّ. لقد تصوّروا سلسلة من المهامّ يمكن للأشخاص المُختبَرين – لكي يعطوا تفسيرا سببيا – ان يطرحوا اسئلة إمّا عن التغيّر المشترك (مَن، ماذا) او عن الآليّة (كيف) . وقد وجد الباحثون تفضيلا للمعلومة المتعلّقة بالآليات السببية على المعلومة المتعلقة بالتغيّر المشترك في جميع مهامّهم. ولاحظوا انّ التفسير يُفهم – بسهولة اكبر بوصفه قائما على الآلية (اي على قوانين عامّة) اكثر من كونه قائما على التغيّر المشترك. والواقع انّ التفسيرات المرتكزة على الآلية تتميز بكونها تفسيريّةً حقيقةً لأنّها توليديةً تسمح بشكل مجرّد بالتنبّؤ بوضعيات جديدة. وقد تعلّق إغلمان وهولكمب (Eagleman & Holcombe,2002) بهذه الرؤية للاشياء بشكل غير مباشر، في مناقشتهما مقال هاغار وغيره (Haggard, 2002) المتعلّق بالاحكام الزمنية الذاتية حول انطلاق الحصيلة من العمل بحسب اعتبار القائم بالعمل نتيجة احد اعماله او لا. ويُحكم على الآجال بأنّها اقصر في الحالة الاولى. والتفسير الذي يقترحه إغلمان وهولكمب هو انّ احداثا تُعرف بوصفها في علاقة سببية، لها حظّ اوفر في ان تكون قريبة زمانا

ومكانا من احداث لا رابط بينها" (ص235)، وهو ما قد يعلّل انّه يمكننا استنتاج الترابط ومن ثمّ التجاور الزمنيّ للآليّة السببية.

إجمالا، فإنّ الحيوانات البشرية وغير البشرية يرتكز كلاهما على الترابط مع المعرفة السببية الاعتباطية (CCA)، غير انّ البشر لا يتوقّفون عند هذا الحدّ، بل يستعملون ايضا مناويل سببية مجرّدة وتفسيرات عامّة. اخيرا، يمكننا ان نضع تعريفا غير شكليّ للتفسير: إنّ التفسير يتمسّك باليّة عامّة تسمح بتعالُق نتيجة معيّنة مع سبب معيّن (تكون عناصرهما مترابطة) .

هل اللغة هي العلة هي أنّ البشر ليسوا مجرد حيوانات ترابطية؟

السؤال الأول الذي يُطرح يمكن ان يكون متعلّقا بمعرفة ما إذا كان البشر هم الحيوانات الوحيدة التي لا ترضى بالترابط فقط. قطعا، فإنّ كلبي ماكس لا يتجاوز الترابُط، ولكن حيوانات ذات تكوين اكثر تعقّدا معرفيّا، نحو الشامبانزي، الا يمكنها ان تذهب ابعد وتستعمل، كما يفعل ذلك البشر، وإن بشكل اكثر محدودية على الأرجح، مناويل سببية مجرّدة وتبحث عن تفسيرات عامّة، قد تكون قائمة على اليّات غير مرئية؟ وإذا لم تكن الشامبانزي تفعل ذلك، في حين انّنا نقوم بذلك بوضوح، فكيف نفسّر هذا التفاوت بيننا وبينها؟

إنّ مسألة معرفة ما إذا كان الشانبانزي تبحث عن تفسيرات، قد فحصها بوفنيلي ودنفي ليلي (Povinelli et Dunphy- Lelii,2001) في تجربتيْن مبتكَرتيْن وذلك بمقارنة اطفال في سنّ الروضة (من2 إلى 6 سنوات) وشانبانزي (بين 9 و10 من العمر في التجربة الأولى) . وكانت المهمّة في الحالتيْن وضع قوالب واقفة في شاحنة مسطّحة لنقل السلع مكسوّة برِفد غير منتظم، ولكن توجد

ثقوب تقع في مساحة منتظمة. في كلتا التجريتين، كان ثمة قالب مغشوش: في التجربة الاولى، هذا القالب لم يكن بالإمكان جعلُه واقفا لانّ حافاته مستديرة؛ وفي التجربة الثانية، كانت القوالب العاديّة والقالب المغشوش متطابقين بصريًا على شكل حرْف ـا ولكنّ الثقل كان موضوعا إمّا على الجانب الطويل، او على الجانب القصير، بما يسمح بتوقيف القالب على جانبه الطويل او يجعل ذلك مستحيلا، على التوالي. وكانت النتائج مثيرة للاهتمام: ففي التجربة الثانية، حيث كان الفرق بين القوالب العادية والقوالب المغشوشة غير ظاهر للعيان، حاول 61٪ من الأطفال ان يفحصوا القالب المغشوش لمحاولة فهْم لِمَ لَمْ يقدروا على وضعه في الوضعية المطلوبة. على النقيض من ذلك، لم يفعل ذلك اىّ شانبانزي. وهذا ما يقود إلى افتراض عدم إمكانية الملاحظة (انظر فونك وبوفنيللي، تحت الطبع، ص55 .cf. Vonk & Povinelli, sous presse.) إذ بمقتضاه، فإنّ احد الاختلافات المهمة بين البشر وغيرهم من الأجناس انّ عقولنا تكوّن مفاهيم تُحيل على كيانات او على مسارات غير ملاحظة وتفكّر انطلاقا من هذه القاعدة. ويتابع فونك وبوفنيللي مقترِحَيْن انّ العُمق التجريديّ الكامن، والذي يجعل التفكير في ما هو غير ملاحَظ ممكنا، قد تطوّر على الارجح بالتوازي مع اللغة الطبيعيّة (المرجع نفسه، الصفحة نفسها).

ويبدو انّ هذا الافتراض يمكن ان تنقضه سلسلة من التجارب التي اجرتها فارلي وفريقها (انظر سيغال وغيره2001، فارلي وسيغال2000، فارلي وغيرها حيث (cf. Siegal et al.2001, Varley & Siegal 2000, Varley et al. 20012001 بيّنت انّ مرضى الحُبسة الذين لا يقدرون على إجراء القواعد النحوية، يمكنهم ان ينجحوا في مهامّ التفكير والسببية ونظرية الفكر (ومهامّ ToM تقتضي

اصلا ما لا يمكن ملاحظته) . وهكذا فإنّ لغةً إجرائية ليست ضرورية لإنجاح مثل تلك المهامّ. قد يبدو هذا مناقضا لافتراض فونك ويوفنيللي حول وجود رابط بين القدرة على مَفْهَمَة ما لا يمكن ملاحظته وبين اللغة. والحال انّ فارلي (Verley, 1998, 45) هي نفسها لاحظت انّ مرضاها كانت لهم قدرات لغوية عادية إلى حدود وسط عمر الكهولة واستنتجت انّ هذه النتائج لا علاقة لها مع دور اللغة في تطوّر الفكر. وقد تكون اللغة ضرورية لتصوير المعرفة المركزية لبعض اصناف النشاط المعرفيّ . وقد يكون محيّرا اكثر كونُ الأطفال في سنّ ما قبل تعلّم اللغة يُفترض انّهم قادرون على التفكير الدقيق ضمن المعرفة السببية الطبيعية (CCN) . ورغم انّ هذا يجب ان ان يميّز بدقّة: فإنّ اختبار الاعتقاد الخاطئ لم يُجْرَ قبل بداية تطوّر اللغة (انظر للمناقشة روبول .cf Reboul 2004) ويمكن تفسير ما يحققه الرضّع في اختبارات الفيزياء السانجة[1]، كما يقترح ذلك بوفنيللي (Povinelli2000)، بقدراتهم الاكثر اساسيةً من تلك التي تمسكوا بها عموما . ولْنفترضْ، كما يؤكّد ذلك بعض الباحثين، انّ المعرفة السببية الطبيعية (CCN) تتطوّر بمرور الزمن (وهو ما لا يتناقض مع افتراض العوامل الفطرية) . في هذه الحالة، فإنّ التناقض الظاهر بين افتراض عدم إمكانية الملاحظة وارتباطه باللغة من جهة وبالفكر المجرّد السابق لاكتساب اللغة (pré-linguistique) او المصاب صاحبه بالحُبسة (aphasique) من جهة اخرى، يضمحلّ.

---

(1) الفيزياء السانجة: اي المرتبطة بالأعمال البيولوجية وبالجسم في بيئته. هذه الفيزياء التي يمكن ان نصفها بالذاتية، مستقلة تماما عن كل مشكل للحقيقة. كما يُطرح في مستوى المنطق والإيستيمولوجيا . عن فصل الإدراك (perception) في الموسوعة الكونية الفرنسية (E.U) الّفه جورج ثيناس (Georges Thinès). (المترجم)

ما يبقى غامضا، هي طريقة ارتباط اللغة بمَفْهَمَة غير الممكن ملاحظته هنه، والتي يرى فونك ويوفنيللي انّها خاصّة بالجنس البشريّ. ولمحاولة توضيح هذا الرابط فلْنعُد إلى ما يُقال عامّةً عن تطوّر اللغة. جمهور العلماء يرى انّها تطوّرت نحو التواصل. بقطع النظر عن تشومسكي الذي لا يقول بتطوّر اللغة – بل يقول إنّها انبثقت بكل بساطة – فقد هاجم هذه النظرة التواصلية في كثير من ابحاثه، لن اشير إلاّ إلى اخرها (Chomsky 2005) . إذ نكر تشومسكي في بداية مقاله عددا من علماء البيولوجيا البارزين (جاكوب ومونو ولوريا Jacob, Monod, Luria) الذين يشكّون في انّ التواصل امكن له ان يمارس ضغطا انتقائيًا كافيا لإنتاج اللغة. وبوصفي مختصّ[1] في الفلسفة واللسانيات، التزم بهذه الرؤية للاشياء، ما دمت مقتنعة بأنّ للغة اثرا معرفيًا مهمًا. ومع ذلك، ومن هذا المنظور، من المفيد ان نتساءل عمّا نقصده بـ"اللغة" عموما. منوال شهير لتطوّر اللغة هو ذاك الذي اقترحه جاكندوف (Jackendoff 1994) إذ يرى فيه سلسلة من المراحل: تواصلٌ حيوانيّ – لغةٌ طرازية – نحوٌ كلّيّ تشومسكيّ (UG) . ويختلف التواصل الحيوانيّ عن اللغة الطرازية بما يحمله من عدد محدود من المفردات وبعدم قدرته على الانتقال (القدرة على الإحالة على اشياء غائبة او غير موجودة) . امّا اللغة الطرازية فلها معجم مفتوح وتسمح بملفوظات ذات كلمتيْن ولكنها لا تحتوي لا على مفردات وظيفية (إنْ – انّ – الـ – حيث – إلخ .) ولا علم صرف تركيبيّ، وهو ما يميّزها (اي اللغة الطرازية) عن النحو الكلّيّ (UG) . وتختلف رؤية تشومسكي عن هذه الرؤية بشكل مفيد: فالنحو الكلّيّ (UG) – وقد اصبح الآن مُختزَلا في عدد محدود من العمليات – قد انبثق بوصفه وظيفةً للتعقّد وقد انطلق هذا

---

(1) الكلام لآنا رويول. (المترجم)

الانبثاق من قبَل ضرورة ربط مفاهيم معزولة، وإن كانت كثيرةً بشكل توليديّ (لا نهائيّ، افتراضا) دون ان تستوجب ايّ مسار تطوّريّ، بالمعنى الشديد الملاءمة لذلك. ونلاحظ انّ هذا الافتراض الذي اطلقه تشومسكي تسانده بعض المناويل الرياضية التي طوّرها نوّاك وزملاؤه (Nowak 2001) . إذا كانت رؤية تشومسكي صحيحةً، فإنّ المرحلة الكبرى تتمثل في ارتفاع عدد المفاهيم، التي يمكن ان تكون بالفعل مرحلة تطوّرية حاسمة[1]. وبعبارة اخرى، وإن سلّمنا جدلا بأنّ افتراض اللغة الطرازية صحيح، فإنّ المرحلة الكبرى يمكن ان تكون المرور من الأنظمة المغلقة التي يتسم بها التواصل الحيوانيّ، إلى الأنظمة المفتوحة التي تتسم بها المعرفة البشرية بغياب الحدود المعجمية او المفهومية. وغالبا ما لاحظنا انّ التنقّل لا يوجد في انظمة التواصل غير البشرية ويمكننا حتى ان نبرهن على انّه غير موجود بشكل واضح عند ما يمكن ان يُسمّوا متكلّمين اوائل (انظر مناقشة لهذا الموضوع: اندرسن cf. Anderson 2004). وهذا بدقة – في ما يبدو لي – ما يسمح بالمرور من نظام مغلق إلى نظام مفتوح بشكل موثوق، وهو ما يسمح، كما سنسجّل ذلك، بتطوير مفاهيم ما هوغير ملاحَظ والتي نجد انّها متضمّنة بقوّة في المعرفة السببية الطبيعية (CCN). اخيرا، كي ننهيَ، نسجّل انّ التفسيرات الكامنة في المعرفة السببية الاعتباطية (CCA) تستخدم في الغالب المعرفة السببية الطبيعية (CCN) .

---

(1) Anderson (2004) et Maynard Smith & Szathmary 1999.

خلاصة

لقد حاولتُ ان ابيّن انّ المعرفة السببية، ورغم وجود جزء مشترك بين الحيوانات البشرية وغير البشرية بموجب الأساس الترابطيّ للمعرفة السببية الاعتباطية (CCA)، لا يمكن ان تُختزَل، مع ذلك، في مجرّد مسار ترابطيّ عند البشر، لأنها تقتضي حاجة إلى التفسير لا توجد عند الحيوانات غير البشرية. هذا الاختلاف العظيم بين المعرفة السببية البشرية وغير البشرية، تمّ تفسيره باعتماد افتراض عدم إمكانية الملاحظة. وقد حاولتُ في القسم الأخير من المقال ان أُجملَ تحليل الطريقة والأسباب التي من اجلها تتصل القدرة البشرية على المَفْهَمَة بشكل حميم بالقدرة البشرية على اللغة.

المراجع

- Ahn, W-K., Kalish, C.W., Medin, D.L. & Gelman, S.A. (1995) , "The role of covariation versus mechanism information in causal attribution", in **Cognition** 54, 299-352.

- Anderson, S.R. (2004) , Doctor Dolittle's delusion: animals and the uniqueness of human language, New Haven/London, Yale University Press.

- Chomsky, N. (2005) , "Three factors in language design", in **Linguistic Inquiry** 36/1, 1-22.

- Dennis, M.J. & Ahn, W-K. (2001) , "Primacy in causal strength judgments: the effect of initial evidence for generative versus inhibitory relationships", in **Memory & Cognition** 29/1, 152-164.

- Eagleman, D.M. & Holcombe, A.O. (2002) , "Causality and the perception of time", in **TICS** 6/8, 323-325.

- Haggard, P., Clark, S. & Kalogeras, J. (2002) , "Voluntary action and conscious awareness", in **Nature Neuroscience** 5/4, 382-385.

- Hagmayer, Y. & Waldmann, M.R. (2004) , "Seeing the unobservable — inferring the probability and impact of hidden causes", in **Proceedings of the 26th animal conference of the Cognitive Science Society**, Mahwah, NJ, Erlbaum.

- Hume, D. (1975) , Enquiries concerning human understanding and concerning the principles of morals, Oxford, Oxford University.

- Jackendoff, R. (1994) , **Patterns in the mind: language and human nature**, New York, Basic Books.

- Lovibond, P.F. (2003) , "Causal beliefs and conditioned responses: retrospective revaluation induced by experience and by instruction", in **Journal of experimental psychology: Learning, memory & Cognition** 29/1, 97-106.

- Maynard Smith, J. & Szathmary, E. (1999) , **The origins of life: from the birth of life to the origins of language**, Oxford, Oxford University Press.

- Nowak, M.A. (2001) , "Evolution of universal grammar", in **Science** 291, 114-118.

- Pennington, G.L. & Roese, N.J. (2003) , "Regulatory focus and temporal distance", in **Journal of experimental social psychology** 39, 563-576.

- Povinelli, D. (2000) , **Folk Physics for apes**, Oxford, Oxford University Press.

- Povinelli, D.J. & Dunphy-Lelii, S. (2001) , "Do chimpanzees seek explanations? Preliminary comparative investigations", in **Canadian journal of experimental psychology** 52/2, 93-101.

- Premack, D. (1995) , "Cause/induced motion: intention/spontaneous motion", in Changeux, J.P. & Chavaillon, J. (eds) , **The Origins of the human brain**, Oxford, Clarendon.

- Reboul, A. (2004) , "Evolution of language from theory of mind or coevolution of language from theory of mind?", Webconference **Issues in the coevolution of language and theory of mind**, available at URL: http://www.interdisciplines.org/coevolution/papers/1.

- Rescorla, R.A. & Wagner, A.R. (1972) , "A theory of Pavlovian conditioning: variations in the effectiveness of reinforcement and non-reinforcement", in Black, A.H. & Prokasy, W.F. (eds) , **Classical conditioning II. Current research and theory**, New York, Appleton-Century-Crofts.

- Roese, N.J. & Olson, J.M. (1996) , "Counterfactuals, causal attributions, and the hindsight bias: a conceptual integration", in **Journal of Experimental Social Psychology** 32, 197-227.

- Roese, N.J. & Olson, J.M. (2003) , "Counterfactual thinking", in Nadel, L., Chalmers, D., Culicover, P., French, B. & Goldstone, R. (eds) : **Encyclopedia of cognitive science**, New York, Macmillan.

- Roese, N.J. (1994) , "The functional basis of counterfactual thinking", in **Journal of personality and social psychology** 66/5, 805-818.

- Siegal, M., Varley, R.A. & Want, S. (2001) , "Mind over grammar: reasoning in aphasia and development", in **TICS** 5, 296-301.

- Varley, R.A. & Siegal, M. (2000) , "Evidence for cognition without grammar from causal reasoning and 'theory of mind' in an agrammatic aphasic patient", in **Current biology** 10/12, 723-726.

- Varley, R.A. (1998) , "Aphasic language, aphasic thought: propositional thought in an apropositional aphasic", in Carruthers, P. & Boucher, J. (eds) , **Language and thought: Interdisciplinary themes**, Cambridge, Cambridge University Press.

- Varley, R.A., Siegal, M. & Want, S. (2001) , "Severe impairment in grammar does not preclude theory of mind", in **Neurocase** 7, 489-493.

- Vonk, J. & Povinelli, D. (sous presse) , "Similarity and difference in the conceptual systems of primates: the unobservability hypothesis", in Zentall, T. & Wasserman, E. (eds) , **Comparative cognition**, available at URL: http://www.cognitiveevolutiongroup.org/site100-01/1001369/docs/ preliminary_similarity.pdf.

- Waldmann, M.R. (2000) , "Competition among causes but not effects in predictive and diagnostic learning", in **Journal of experimental psychology: Learning, memory and cognition** 26/1, 53-76.

- Waldmann, M.R. (2001) , "Predictive versus diagnostic causal learning: evidence from an overshadowing paradigm", in **Psychonomic Bulletin & Review** 8, 600-608.

- Waldmann, M.R. & Hagmayer, Y. (1998) , "How categories shape causality", in Hahn, M. & Stenoss, S.C. (eds) , **Proceedings of the 21rst annual conference of the Cognitive Science Society**, Mahwah, NJ, Erlbaum.

- Waldmann, M.R. & Martignon, L. (1999) , "A Bayesian network model of causal learning", in Gernsbasher, M.A. & Derry, S.J. (eds) , **Proceeding of the 20th annual conference of the Cognitive Science Society**, Mahwah, NJ, Erlbaum.

المعرفة بالصورة

أو ما العلاقة بين الصورة والمعرفة؟

جون بيير مونييه

تمهيد

هذا الفصل تعريب للقسم الأخير[1] من بحث جون بيير مونييه[2] وهو بحث يتعلق بتبيّن ضروب العلاقة بين الصورة والمعرفة. ويطرح رؤية مختلفة عن النظرة التقليدية للصورة كما جاءت في الأدبيات البلاغية، حيث يُكتفى بتنميط الصورة عبر تسميتها وتقسيمها إلى تشابيه واستعارات، وما تتفرع إليه من تفريعات جزئية...

---

(1) توجد نسخة (PDF) من البحث المذكور في الهامش التالي على الأنترنيت، وما قمنا بتعريبه يقع ضمن هذه النسخة بين صفحتي 33 و42

(2) Jean-Pierre Meunier, Connaître par l'image, Recherches en communication, n°10, 1999, pp.35-75.

امّا هذا البحث فيركّز على النواحي الذهنية والتواصلية لمبحث الصورة. ويدافع مونييه عن فكرة ايقونية الفكر البشريّ، ممّا يعني انّ الصورة لا يمكن ان يُنظر لها بوصفها زينة وإخراجا، بل هي نفسها فكرة والفكرة صورةً.

النص المترجم

إنّ البشر يدركون العالم ويُنشئونه في مناويل (...) . ويمكنهم كذلك إعادة إنتاج هذه المناويل في الخطاب: اي إصدار سلوكات رمزية – عبارات لسانية – تقوم بنقل المناويل من شخص إلى شخص اخر. ومن جهته ينشئ الفرد الذي يفكّ شفرة هذه العبارات اللسانية منوالا يشبه حالة الأشياء في العالم الذي عرفه المتكلم وحاول نقله[1].

إنّ مفهوم الصورة ضروريّ عند لانغاكير (Langacker)، لنتنبّه إلى انّ تعابير لسانية مختلفة تعطينا رؤى متنوّعة للوضعية الموضوعية نفسها[2].

ودون ان تكون للنحو بنية مستقلّة لا تتبع توليفاته سوى قواعد صورية، فإنّ النحو يتبع المعنى: اي الخيال.

إنّ ما يجهله كثير من السيميائيين ان بياجيه (Piaget) عالم النفس التطوّريّ (développement)، كان يستخدم بشكل مباشر مقولات بيرس (Peirce) : المؤشّر (l'indice) والأيقونة (l'icône) والرمز (le symbole)، لوصف "الوظيفة الرمزية" على مراحل. وتسمح هذه التوافقات بتوضيح صلات كثيرة

---

(1) Ph. Johnson – Laird, L'ordinateur et l'esprit, Paris, éd. Odile Jacob, 1994.

(2) R. Langacker, Foundations of cognitive grammar, vol. 1, Stanford (California), Stanford University Press, 1987.

بـين فئـات العلامـات الكـبرى ومختلـف مظـاهر التواصـل الـتي اسـتخرجتها نظريات التواصل المتلاحقة: الدلالة والعلاقة والمعرفة.

على مستوى الدلالة والمعرفة (وهما مستويان متصلان إلى مدى بعيد)، يسمح التقسيم إلى مؤشّر وايقونة ورمز بإدراك التطوّر في مسارات يمكن ان نصفها بالابتدائية او قبل المنطقية (التكثيف والنقل، او الاستعارة والكناية)، من جهة، كما يسمح بإدراك التطوّر في المسارات المنطقية اللغوية، من جهة اخرى.

إنّ الإطار المفهوميّ الذي يمثّله الثالوث (المؤشّر والأيقونة والرمز) يُعتبر خصبا إلى حدّ مّا. فلقد سمح بوضع شيء تجهله اللسانيات او تتجاهله: يتمثل في انّ التواصل يختلف اختلافا ملحوظا باختلاف ضروب العلامات التي تندرج في نطاقه ويكون هذا ضمن مظهر تُجلّيه العلاقة او الدلالة او المعرفة.

ومع ذلك، علينا ان نقرّ بأنّ النظريات العرفانية للغة تطرح مشكلا كبيرا على الثالوث البيرسي.

إنّ "ايقنة" (icônisation) الفكر، تشوّش، في الواقع، التوافقات القائمة. إذا كانت المَصْوَرة (l'imagerie) تتجاوز ميدانها (التمثيل الأيقوني بتتمّ معنى الكلمة، المتضمّن لصور ذهنية وصور مائيّة) لتكتسح مجال التواصل اللسانيّ، فإننا لا نرى بوضوح، كيف يمكن المحافظة على الخصائص المميّزة لكلّ طرف منهما. وثمة حلّ لهذا المشكل يتمثل في تذويب الاختلافات وإرجاع ما هو لسانيّ (رقمي، موقوف على المنطق) إلى ما هو ايقوني، تقريبا. على النقيض مما حاولت العلاماتية (sémiotique) فعله. وبذلك لن يُصبح ما هو لسانيّ سوى اداة لما هو ايقونيّ.

إنّ تجنّب احادية البُعد، يجرّ إلى حصول مشاكل صعبة الحلّ في مجال التفاعل والتوسيط. وإذا سلّمنا بالغائية الأيقونية لما هو لسانيّ، فإنه علينا ان نتفهّم اثار التوسيط التي يمارسها ما هو ايقونيّ.

يـرى لانغـاكير ان التـشبيه مفهـوم اساسـيّ لتحديـد الحيـاة الذهنيـة، إذ يقـول: "إنّ قـدرتنا علـى مقارنـة الأحـداث وتـسجيل ايّ تقابـل (Contrast) او تعارُض (discrepancy) بينها، لأمرٌ اساسيّ بالنسبة إلى المسار العرفاني"[1].

بالنسبة إلى لانغاكير، كما هو الحال بالنسبة إلى بياجيه، لا تتعلق التجربة الذهنية فقط بالمدخل (input)، بل تتعلق ايضا بالبنى التي تفرضـها عليها انتظاراتنا والرتابة التأويلية.

إنّ جوهر الاستعارة، كما يرى لايكوف وجونسون، يكمن في كونها تمكّننا من فهم شيء ما (وان نكوّن عنه تجربة) باعتماد الفاظ اخرى[2].

نحو علاماتية عرفانية: استنتاجات

1. تبدأ المعرفة بنسخ قائم على محاكاة الواقـع المُدرَك. وتتطوّر المعرفة بعد ذلـك عـبر تراتبيـة مـن التمثـيلات الأيقونيـة الـتي تنطلـق مـن الـصور في المستوى الأساسيّ (صور الكائنات التي تكون في متناول الجسد)، نحو "مناويل ذهنية" اكثر فـاكثر تجريدا، ولكنها مـع ذلك تظل ايقونية (وتُفهم بوصفها كذلك، عبر قدرات الجسد القائمة على المحاكاة) .
2. إنّ المعرفة عبر الأيقونات هي بالتوازي مع ذلك معرفة عبر المظهر (profil) ممّا يعني انّ كلّ صورة او منوال يُبرز بعض المظاهر ويمحو اخرى.

---

(1) R. Langacker, Foundations of cognitive grammar, vol. 1, Stanford (California), Stanford University Press, 1987.

(2) G. Lakoff et M. Johnson, Les métaphores dans la vie quotidienne, Paris, Ed. de Minuit, 1985.

3 لمّا كانت المعرفة تقوم على نشاط اساسيّ من المماثلة او التشبيه، فإنها تجري بالضرورة عبر إضفاء الصبغة الاستعارية (métaphorisaton) والصبغة الخطاطية (schématisation) . إنّ مفهوم الخطاطة (وهي حالة خاصّة من الوضع في بروفايل) قد بدا محوريا ويقود إلى تصوّر للمعرفة بوصفها شبكة واسعة من المناويل الخطاطية، بعضها يتضمّن بعضا، بمقدار تقلّ او تكثر، فبعضها اكثر قابلية للتخصيص من بعض، وسمتا "القلة والكثرة" هاتان، مردّهما إلى تنويعات المعرفة بحسب درجات الانتظام في النسق (systématicité) .

يتمثل المشكل في تحديد التمفصل بين العلامات الخارجية (اللغة الملفوظة والصور المانيّة اساسا) وبين الصور والمناويل الذهنية التي يمكن ان نعتبرها تمثيلات او علامات داخلية.

إنّ هذا التمفصل لا يمكن ان يُفهم – عبر المنظور الذي يتبناه مونيه (Meunier) – بوصفه مجرّد ترجمة. إنّ الفكر وعلاماته لا تتطوّر اوّلا لكي تصبح علاميّة بعد ذلك. بعبارة اخرى، ليست العلامات الخارجية مجرّد وسائل تتواصل عبرها العلامات الداخلية. إنها كذلك، حسب عبارة غودي (J. Goody) الجميلة "تكنولوجيات الذكاء"، إنها ادوات خارجية يعكس استعمالها صُوَر التفكير وعملياته[1].

هذه الفكرة يحملها تيّار فكريّ برمّته، يجعل الاشتغال العرفاني مرتبطا بالتوسّط العلاميّ، او بعبارة ادقّ بالتوسّط السوسيوعلاميّ (sociosémiotique)،

---

(1) J. Goody, La raison graphique, Paris, Ed. de Minuit, 1979.

بما أنّ العلامات هي نتاج التفاعلات الاجتماعية[1]. في إطار هذا التيار النظري، تتمثل الفرضية التي يجب اختبارها في وجود علاقة دائرية تجعل ما هو سوسيوعلاميّ مرتبطا بما هو نفسيّ والعكس بالعكس.. ولكننا نعلم أنّ مثل هذه الدائرية تطرح بعض المشاكل العويصة منهجيا. لكي نعتقد في الدائرية، علينا أن نفكّك المصطلحات بعض الشيء (وهنا نفكك مصطلحيْ الفكر والعلامات) لكي نستعيد بعد ذلك مشكل التحديد المتبادل. وهذا ما فعلناه هنا بنظرنا بداية في الفكر، وهو اختيار يسوّغه كون الفكر – بالنسبة إلى اللغات – يبدو أوّليًا ومتصلا بصلتنا الجسدية في الأصل (الحسيّة الحركية) بالعالم. إنه الدور الأساسي للتوسّط الجسديّ في تكوّن الفكر الذي يعطي أفضل الحجج لصالح الحدْس الأيقونيّ المُسبَق للفكر. بقي لنا الآن أن نفحص المصطلح الثاني وآثاره بالعودة إلى أفكارنا – الصور. بقي علينا، بعبارة أخرى، أن نطرح مشكل التحديد المتبادل لهذه الأخيرة عبر التوسّط العلامي[2]. فيما يتعلق بهذا الموضوع الشاسع، نكتفي مهنا بتعيين بعض الأسئلة المكوِّنة للإشكالية. وقد يساعد هذا الرسم التأليفي على هذا التعيين:

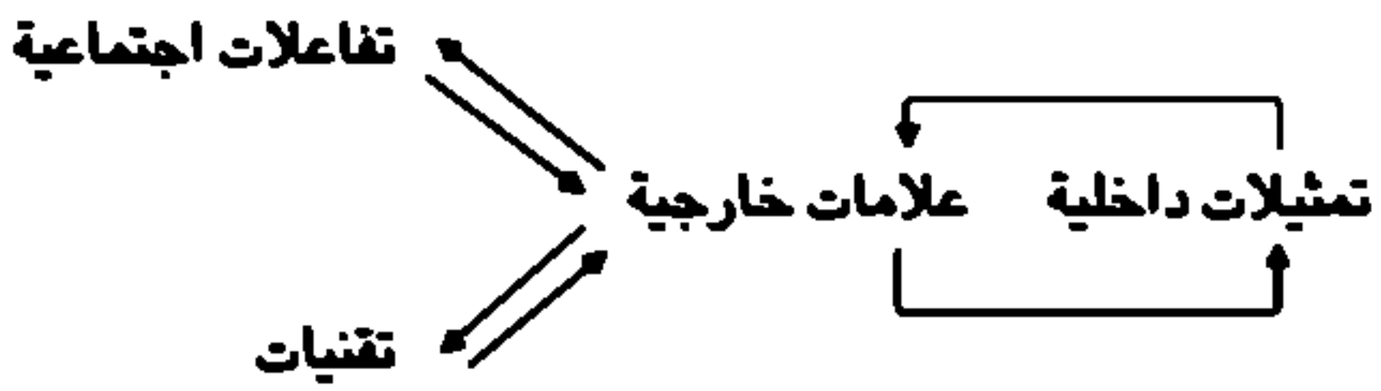

(1) يرتبط بهذا التيار، فضلا عن عالم الأنثروبولوجيا غودي (J. Goodi)، كتاب آخرون مثل عالم النفس التطوّريّ فيغوتسكي (Vygotsky) أو الفيلسوف ليفي (P. Lévy) الذي وطّد أركان هذا التيّار بشكل خاصّ. ويمكننا، على صعيد آخر، أن نلحق به المنظور الوسائطي (médiologique).

(2) إنّ المشاكل المرتبطة بمفهوم الدائرية (circularité) تستحقّ، دون شكّ، فحصا أعمق بكثير.

لقد واتتنا الفرصة للاهتمام باللغة الملفوظة ضمن هذا المنظور. فقد راينا انه متى عُرفت الغايات الايقونية في اللغة الملفوظة، فإنه لن يكون بوسعنا مقابلتها ببساطة مع التماثلية وإسناد خصائص مختلفة جذريا لها.

فلقد قلنا على سبيل المثال إنّ اللغة الملفوظة لها نحوٌ، في حين انّ الصورة لا نحوَ لها. ولكن هل يتعلق الأمر بافتقار أو نقص؟ إذا كانت الصورة لا تتوفر على نحوٍ، فذلك يعني، بمعنى من المعاني انها لا تحتاج إليه. إنّ ما تبنيه اللغة بواسطة الأسماء والصفات والأفعال والحروف، إلخ.، تعرضه الصورة بشكل مباشر[1]. إنّ ما تصوّره في المخيال عبارات من قبيل "فوق"، "تحت"، تُرينا إيّاه الصورةُ. ولعلّ روابط منطقية مثل "إمّا ... وإمّا ..." و"إن ... فـ..."، لا تقوم سوى بإعادة بناء عمليات خيالية للمقارنة مع مناويل ذهنية بديلة او لتعويضها[2]. هل علينا ان نقول إنه يعسر على الصورة التعبير عن المنطق (وهو ما نعتقده، عموما) او على العكس من ذلك نقول إنّ المنطق يسعى إلى شكلنة عمليات خيالية، قد لا يقدر على الإمساك ببعضها؟[3] ولنترُكْ هذا السؤال معلّقا، ولْنعتقدْ انه يتعلق بمشكلة لم تُحلّ مِنْ قبلُ.

---

(1) كتب ب. ليفي (P. Lévy) عن السينما يقول: "بدل ان نهتمّ بالتاكيد انّ السينما ليست لسانا لانها لا تملك نحوًا. يمكننا ان نلاحظ انّ السينما إذا كانت لا تحتاج إلى نحوٍ، فذلك لان وظيفة النحو – وهي وصف الجُمل – تؤدّيها اللغة السينماتوغرافية على احسن ما يرام، وذلك من دون ان تكون ثمة حاجة إلى استدعاء شفرة الية مساعدة". انظر كتابه: (L'Idéographie dynamique. p.57)

(2) اعمال عالم النفس جونسن – ليرد (Johnson- Laird) تقوم على فرضيات تسير في هذا الاتجاه. انظر: "الحاسوب والفكر" (L'ordinateur et l'esprit)

(3) يذهب ليفي في هذا الاتجاه الثاني ...

ولكن إذا كانت اللغة تخدم المَصْوَرَة الذهنية (l'imagerie mentale)، التي يستعملها – بمعنى من المعاني – للترجمة وللتواصل، فإنه علينا ان نعترف بأنّ اللغة تحوّلُ المَصْوَرة الذهنية، وعلينا ان نسعى إلى تدقيق كيفيات هذا التحويل. وقد سبق لنا ان نظرنا في البُعد الذي تُضفيه اللغة الملفوظة بالنسبة إلى العالم المُدرَك، وكذلك بالنسبة إلى التمثيل الداخلي لذلك البُعد.

إنّ علامية عرفانية ستكشف اكثر اغوار التحوّلات التي تُحدثها الكلمات في المَصْوَرة نفسها وستعيد انطلاقا من وجهة النظر هذه، اكتشافَ دي سوسير لمبدإ الاختلاف، لا كما يؤكّده المذهب البنيويّ، بوصفه – اي الاختلاف – اساسَ المعنى الخاصّ، بل بوصفه منبع التمييزات الموضوعة في إيجابية المَصْوَرة (المقولات، المجالات، إلخ.) والإمكانيات العرفانية التي تنبع منها. يقول دي سوسير: "إنّ الفكر، الفوضويّ[1] (chaotique) بطبيعته، مُجبرٌ على ان يبقّق ذاته وهو يفكّكها (...)"[2]، وهو ما اعاد برونكارت (Bronckart)، صياغته كما يلي:

---

(1) ليست صفة الفوضوية في هذا السياق، ذات مدلول سلبيّ، بل هي تشير إلى نظرية الشواش (Chaos Theory) وهي من احدث النظريات الرياضية الفيزيائية -وتترجم احيانا بنظرية الفوضى او العماء- التي تتعامل مع موضوع الجمل المتحركة (الديناميكية) اللاخطية التي تبدي نوعا من السلوك العشوائي يعرف بالشواش وينتج هذا السلوك العشوائي إما عن طريق عدم القدرة على تحديد الشروط البدئية (تأثير الفراشة Butterfly Effect) او عن طريق الطبيعة الفيزيائية الاحتمالية لميكانيك الكم.
وتحاول نظرية الشواش ان تستشف النظام الخفي المضمر في هذه العشوائية الظاهرة محاولة وضع قواعد لدراسة مثل هذه النظم مثل الموانع والتنبؤات الجوية والنظام الشمسي واقتصاد السوق وحركة الأسهم المالية والتزايد السكاني. نقلا عن موسوعة ويكيبيديا.

(2) F. De Saussure, Cours de linguistique générale, Paris, Payot, 1916, p.156.

قبل ظهور اللغة، كان يوجد قطعا نشاط نفسيّ عمليّ، ولكن هذا الاخير يرتكز على اشكال تمثيلية، ليست مخصوصة فحسب، بل هي تكوّن خاصّة كتلة مسترسلة وغير منظّمة، هي عبارة عن خليط من الصور لا حدودَ واضحةً بينها. بإدخال دوالّ منفصلة، انتظمت اجزاء من الاشكال التمثيلية في شكل مدلولات، (...)، وتحوّلت بذلك إلى وحدات تمثيلية بانّمّ معنى الكلمة، محدّدة ومستقرّة نسبيًا. وهذا التصوير (discrétisation) للنشاط النفسيّ يمثّل الشرط النهائيّ لانبثاق الفكر الواعي[1].

لا يمكننا ان نعبّر عن الفكرة التي يتضمّنها البحث افضل من القول إنه لا توجد صيغتان مستقلّتان لتمثيل العالم التماثلي والرقمي (او التمثيل بالجُمل والصورة) : بل ثمّة صيغة واحدة هي الصيغة الايقونية، ولكن ازدواجها مع نظام خارجيّ من الدوالّ يقلّص من إمكانيات التغايُر او التجريد، إلخ.

يتعلق الأمر إذن بكيفية تأثير العلامة الخارجية التي ضُبطت ضمن النشاط السوسيوخطابيّ (socio-discursif) في اشكال المصوّرة الذهنية، في تغايُرها وتنظيمها.

ماذا تعني الآن الصور الخارجية: الرسوم والجداول والافلام والرسوم البيانية...؟

إنّ المشكل والتمثّي متماثلان، حتى وإن لم يعد الامر يتعلق بازدواج بين عناصر متنافرة. كيف تتفاعل هذه الصور الخارجية مع المَصوّرة الداخلية؟

إنّ للصور الخارجية وضعية مزدوجة. فمن جانب لا شكّ في انها تأتي من المصوّرة الداخلية حيث تعدّ تلك الصور ضربا من الإخراج لها. ومن جانب

---

(1) J.-P. Bronckart, Activité langagière, textes et discours: pour une interactionnisme socio-discursif, Neuchâtel, Delachaux et Niestlé, 1996, p.59.

اخر، تُعتبر تلك الصور، مثل الأشياء المُدركة، مواضيع خارجية تتمّ إعادة امتلاكها ذهنيا (داخليًا) . ولْننظر على التوالي في هذين المظهريْن المتخاصميْن:

ان تتأتّى المَصُوَرة الخارجية مِن المَصُوَرة الداخلية، أمرٌ يُفسّر تنوُّعَ تجلّياتها، ومِن ثمَّ تنوُّع مَقُولاتها التي يتمّ تمييزها بالصور. إنّ الصور البيانية البسيطة (الرسوم) تُجري صورا ذهنية بالمعنى الحصري (وقد أقام بياجيه الصلة بينهما بوضوح) . حتى الصور الفوتوغرافية – التي عدّها بارط (Barthes) محض تسجيلات للواقع، في كتابه "بلاغة الصورة" – تمرّ عبر "تذهين" ("mentalisation") المُدرك، لأنها دائما حصيلة تضبيط في البؤرة يحتوي على وجهة نظر واختيار وإبراز لبعض المظاهر: إنّ كلّ صورة هي تثبيت لوضع في مظهر[1].

إنّ الصور الحيّة تتأتّى وتقوم على قدرتنا على القيام بتحويلات على مَصُوَرتنا الذهنية. وكما أنّ الصورة الفوتوغرافية ليست مجرّد تسجيل للمُدرك، فإنّ الصورة السينماتوغرافية ليست مجرّد تسجيل للحركة الواقعية. إنّ ما تقوم عليه مختلف ضروب التغيّرات في الصور السينماتوغرافية شاهدا هو بالتحديد قدرتنا على تخيُّل التحوّل من مشهد بصريّ إلى اخر او على تنويع وجهة نظرنا لذلك المشهد. إنّ مختلف حركات الكاميرا التي يميّزها خبراء السينما تنبع من هذه القدرة، على وجه التحديد.

إنّ الصور الأكثر خطاطية – مثل مختلف أنواع التمثيلات البيانية: الرسوم البيانية، الشبكات، الخرائط الجغرافية – إنّما لها إسقاطات لا ريب

---

(1) إنّ مشكل المشابهة لا يجب ان يطرح انطلاقا من الواقع نفسه، كما بيّنت ذلك سيميولوجيا الصورة، (فهو واقع لا يمكن الدخول إليه من وجهة نظر بنائية). ولكن انطلاقا من إدراك الواقع. انظر في هذا الموضوع ما أوردته مارتين جولي (Martin Joly) في كتابها "الصورة والعلامات"، جامعة ناثان، 1994، ص72 وما بعدها.

فيها، على الفضاء الخارجيّ لمناويلنا الذهنية. إنها تتأتّى من قدرتنا على استخراج خطاطات الأشياء والمشاهد والعلاقات المدركة ثم استخراج خطاطات الخطاطات وجعْل هذه العناصر في عمليات محاكاة (Simulations) ذهنية للواقع على درجات مختلفة من التجريد. إنّ القدرة على استخراج تمثيلات خطاطية تتجلى منذ النتاجات البيانية الأولى، مثلما تبيّن ذلك البحوث المذكورة لدارا (B. Darras) . والواقع انّ المصوّرة الابتدائية تحمل السمات الاكيدة لهذه القدرة: تمثل رسوم الأطفال مقولات عرفانية (من ذلك انّ الزهرة الطرازية تتوفر على خمس بتلات في راس التويج) ولا تُمثّلُ اشياء مفردة (الزهور الملموسة)[1]. هذه "الأنواع الأيقونية" ("iconotypes") يمكن ان توضع بعد ذلك في تمثيلات اعقد تبيّن العلاقات بين مقولات الأشياء التي ترمز إليها: من ذلك انّ الزهرة النموذجية المزركشة (stylisé) والمبسّطة، إلى اقصى حدّ، يمكنها ان تمثّل مجموع النباتات في تمثيل العناصر تُبرز صلات تبعية متبادلة او تحويل بين حالة الأشياء (دورة الفصول، تكاثر النباتات، إلخ.) . نعلم اليوم الدقّة التي توفّرها لنا التقنية لهذا الضرب من التمثيل التصويريّ.

إنّ ما اتينا عليه للتوّ من إسقاط الفضاء الداخلي على الفضاء الخارجي يطرح مسألتين منهجيتين من أجل علاماتية عرفانية.

تتعلق المسألة الأولى بتوضيح القدرات العرفانية الكامنة (sous-jacent) في بلْورة الصور المانّية، هذه الأخيرة يقع اعتبارها عموما من هذه الجهة او تلك، حسب التحققات المخصوصة التي تسمح بها التقنية (رسم، صورة

---

(1) انظر: B. Darras, op. cit.

فوتوغرافية، سينما، إنفوغرافيا...)[1]. إنّ لايكوف وجونسون (Lakoff & Johnson) قد جعلا الصبغة الاستعارية (métaphorisation) شكلا اوّليًا للمَفْهَمة (conceptualisation)، انطلاقا من الاهتمام بالاستعارات التي تحمل اللغة المنطوقة اثارها. وبالمثل، فإنّ الصور الخارجية مثل الخطابات، ينبغي ان تُعتبر بوصفها اثارا تنكرنا بنشاط عرفاني، يجب ان تهتمّ به المقاربة الفينومينولوجية. يبدو من المؤكد، انطلاقا من البحث السريع الذي قمنا به للتوّ، ان نكشف، انطلاقا من مختلف النتاجات الايقونية، قدرات عامّة كالتشبيه والإسقاط الاستعاري واستخراج الخطاطة ومختلف كيفيات ضبط البُؤرة والقدرة على تصوّر التحويلات، إلخ[2]. إن غرض هذه المسألة نو طابع نفسي بالأساس، بيد انّ المقاربة العلامية، تجني فائدة تحديد افضل لمختلف ضروب الإنتاج التي تقوم بها، وفق التعبير العرفاني.

المسألة الأساسية الثانية هي بمعنى من المعاني، نقيض الأولى، من جهة كونها تُجرى انطلاقا من قلْب المنظور الذي تتضمّنه فكرة الدائرية. هذه المسألة الثانية تتعلق بتحديد المَصوّرة الذهنية عبر الصور المائيّة، ومن ورائها عبر ما تؤثّر فيه هذه الصور: الثقافة والتقنية. فيما يتعلق بالصور، يمكن ان تُدرَك الدائرية إجمالا، كما يلي: الصور الذهنية (الناجمة عن إدخال العالم الخارجيّ، بما في ذلك الصور المائيّة) والعمليات الذهنية المُجراة على هذه

---

(1) هذا الضرب من الاسئلة هو اساس البحث الذي قام به لانغاكير انطلاقا من اللغة المنطوقة. ولمّا كانت هذه الاخيرة على صلة محدودة بالمصوّرة الذهنية، كما راينا ذلك، فإنه من الممكن ان نجد لها. انطلاقا من قاعدة الصور المائيّة. القدرات العامّة نفسها كالتي اكتشفها لانغاكير انطلاقا من النشاط اللغوي.

(2) وهي قدرات ينبغي ان نخضعها بالنسبة إلى مكتسبات البحوث العلامية التي اتخذت مرجعية لها المفهوم الفرويدي للمسار الابتدائي وجعلت الاستعارات والكنايات مسارات تدل على انماط من الصور.

الصور، التي يُصار إلى تخصيصها في اشكال خارجية (الصور المانّية ممكنة تقنيا ومراقَبة اجتماعيا، في معظمها)، والتي يتمّ إدخالها بدورها، تحدّد بذلك إلى حدٍّ مّا، المَصوْرة الذهنية، باقتراح خطاطات عامّة جدًا تتعلق في الوقت نفسه بالأشياء وبطريقة رؤيتها. من ذلك انّ القدرة على وضع بعض مظاهر الواقع المُدرَك في مظهر (بروفايل)، اصبحت ملموسة في لحظة مّا من تاريخ البشرية[1]، عبر تطير الصورة المادية الذي اصبح، بمقدوره، عبر الإدخال، ان يعكس الشكل العامّ لصورنا الذهنية بإعطائها صورة الإطار الذي تكوّنت ضمنه: قدرتنا على الوضع في مظهر (بروفايل) عبر الانتقاء والعزل ستزداد. هذا الأثر الراجع سيكون موافقا اشدّ الموافقة، في العمق، للأثر الذي ينسبه غودي (J. Goody) إلى قوائم الكتابات الأولى لوحاتها، وهي قوائم ولوحات متمايزة الخطوط والخانات، تعزّز الفصل بين الأشياء التي تندرج في نطاقها، وهو ما ينعكس على شكل مفاهيمنا، اي على البنية المُشكِّلة للخطاطات التي توافقها. وذلك تبعا لإدخال صورة اللوحة[2]. لا شكّ في انّ معاجمنا قد ورثت قوائم ولوحات من الأزمنة الغابرة، لا تؤثّر بشكلها في بنية التعريفات التي وُضعت لها. إنّ الصورة المُدخلة للكتاب (كما تكوّن عبر القرون بمختلف اقسامه: مقدمة، فصول، خاتمة...) هي بشكل طبيعيّ إطار لتشكيل مناويلنا الذهنية النظرية. في كلّ الحالات لنا صور خطاطية تقوم بدور إطارات لصور اخرى. وبشكل اعمّ إذن، فإنّ الثقافة والتقنية تنتجان خطاطات عامّة عبر-ذاتية (transsubjectif) يُدخلها افراد ويعكسون عبرها مَصوْراتهم الفردية المخصوصة. في إطار هذه الفرضية، نتمثل احد الأسئلة الكبرى التي تطرحها التكنولوجيات الحديثة في ما يلي: إلى ايّ حدّ يُدخل الأفراد الصورة المطبوعة

---

(1) وهي الفترة التي يحددها م. شابيرو (M. Schapiro) بالعصر الليثي الجديد (néolithique).
(2) انظر اعلاه.

لهذه الخطاطات العامّة، على شكل صورة خطاطية قادرة على تصوير مَصْوَرتنا الذهنية (مقولاتنا ومناويلنا وإجراءاتنا على هذه المناويل) ؟

إنّ المظهر الكبير الثاني الذي يسم المَصْوَرة المانيّة والمُشار إليه اعلاه، والذي يقدّم لنا بوصفه اشياء مُدرَكة، يطرح سؤالا يقع في تمفصل السؤالين السابقين. ويتعلق هذا السؤال اساسا بالعمليات العرفانية التي تلتمس إدراك الصور المادية. إنها بلا شك الأكثر علامية لأنها الأقرب من العلامات ذاتها ومن تنظيمها الأكثر او الأقل نسقيةً. ويمكننا ان نعطي امثلة للتحقيقات النسقية التي تستوجبها على مستويات مختلفة من التحليل.

يتعلق الأمر، في المستوى الأساسي لإدراك العناصر التي تكوّن صورةً ثابتةً، بفهم كيفية إجراء النظرة تمايُزات وتشابُهات إلى حدّ الحصول على اشكال عامّة، عبر سلسلة من المقارنات بين هذه العناصر المختلفة، عن طريق هذه الأشكال العامّة يمكن للنظرة ان تدخل في علاقة إيمائية (mimétique)[1].

في المستوى الأعلى مباشرة يتعلق الأمر بكيفية تكفل هذه الأشكال بالدلالات تبعا لسلسلة من المقارنات الجديدة، تصدُر عن الخبرة الجماعية او الفردية (المخزّنة في الذاكرة في اشكال اكثر او اقلّ خطاطيةً) وعن تلك الأشكال نفسها[2].

على مستوى اعلى حيث تُؤلَّفُ صورٌ مختلفةٌ (مخطّطات الأفلام وصور الرسوم المتحركة وشاشات الوسائط العملاقة ...)، يتعلق الأمر ببيان كيفية

---

(1) يمكن ان نقف عند لانفاكير على تصميم متقدّم لمثل ذلك الوصف للعمليات الأساسية التي تُرافق تثبيت شكلٍ قابلٍ للإدراك. انظر: مرجع سابق. ص101 وما بعدها.

(2) إنّ الدراسات التي تُعنى ببلاغة الصورة التي نشنها قديما رولان بارط (R. Barthes) والتي تتأسس على مفاهيم الاستعارة والكناية، يمكنها توضيح هذا المستوى على شرط إعادة تاويل هذه المفاهيم باعتماد عمليات عرفانية.

إدراج مقارنات جديدة بين صورة وصورة مشابهَ واختلافات تؤدّي إلى تكوين وحدات اهمّ (كمقاطع الفيلم، على سبيل المثال) محتويةً على الصور السابقة ومُضمِّنَةً إيّاها في تراتبيات وحدات دالة.

وهكذا دواليك بالنسبة إلى مستويات اعلى دائما (مقاطع، افلام، اجناس ...) [1].

هذه الاسئلة العامّة جدّا، والاجوبة التي قد نُعطيها لها، تُعدّ إطارا لاسئلة اخصّ تتعلّق بالخطابات الملموسة (الشفوية، المكتوبة، السمعية البصرية، او الآن متعدّدة الوسائط) التي تغطّي النسيج الاجتماعيّ وتُدير كلّ ضروب التمثيلات (الفردية منها والجماعية) .

ينبغي أن نضيف إلى تحليل هذه "الخطابات الاجتماعية" إلى سُنَنٍ (code) وإلى تلفُّظ (énonciation)، تحليلا عرفانيا. إنّ الخطابات الاجتماعية هي اجهزة عرفانية بقدر ما هي اجهزة تلفّظ.

وبقطع النظر عن إنتاجها، فإننا نجد تمثيلات للعالم في مناويل ذهنية اشدّ او اقلّ تعقيدا. هذه المناويل ليست نُسخا طبق الأصل للعالم الموضوعيّ، ولكنها بناءات تقتضي وضعا في بروفايل يستدعي التجسُّد وعادات متنوّعة، فلْنقُل: الثقافة.

كلّ خطاب يحمل هكذا سمات عمل فرديّ وجماعيّ (وخصوصا جماعيّ واحيانا فرديّ) لضبط البؤرة والانتقاء المجازيّ والإسقاط الاستعاريّ

---

(1) في هذا المنظور، تبدو على سبيل المثال، مختلف المركبات التي ميّزها متز (Ch. Metz) ضمن مركّب الرسوم المصوّرة، نتيجةً جامدةً بفعل رتابة الإخراج، لتفاعُل تقنية مُكرِّسة للتسلسل المتتابع للصور ولبعض العمليات العرفانية التي تستدعيها هذه التتابعية الخطّية.

والتخطيط إلخ.، وصولا إلى منوال نهنيّ معيّن. هذه العمليات الذهنية تندرج ضمن الملفوظات الشفوية او الايقونية المكوّنة للرسالة بوصفها نتيجةً او مسارًا ينبغي القيام به.

على مستوى التقبُّل، يُطوِّرُ المتقبِّلُ هذه الخطابات، وصولا إلى إعادة بناء منوال نهنيّ على قدر يزيد او ينقص من مُوافقة منوال الباثّ. ويرتكز عمل إعادة البناء هذا على تثبيت مقاصد المُرسِل ونواياه[1] وعلى إتمام عمليات ذهنية مُدمَجة في الخطاب (مقارنة بين الصور، على سبيل المثال، تنتهي إلى إسقاط استعاريّ) وعلى عمل استدلاليّ معيُّن يمكنه أن يقع في مستويات عدّة.

إنّ امتحان هذه المسارات يمكن أن يكون مفيدا من زوايا نظر مختلفة: نحو التحديد العرفانيّ لأنواع الخطاب مثل خطاب الصحافة والأشرطة الوثائقية ورسائل تبسيط العلوم، إلخ. يجب أن يوفّر هذا الامتحان إذن قاعدة لتقييم الرسائل مُفردَةً. ومن منظور سوسيو تربويّ، وضمن هدف تحقيق الديموقراطية العرفانية، لا يتعلق الأمر بمعرفة كيفية سير الأمور، بل أيضا بتقييم ما إذا كان الأمر يسير جيّدا وما إذا كان بالإمكان افضل ممّا كان.

---

(1) لقد بيّن سبربر وولسن (D. S perber & D. Wilson) ضرورة اخذ النيّة بعين الاعتبار لفهم الملفوظات الشفوية.

La pertinence. Paris. Ed. De Minuit. 1989.

وقد يكون الامر على الشاكلة نفسها بالنسبة إلى "الملفوظات الايقونية".

"الوجوه": بين أحادية المعنى وتعدده

جورج كلايبار

تمهيد

ليس هذا الفصل ترجمة بمنتهى معنى الكلمة ولكنها صيغة عربية مقاربة للأصل الفرنسي[1]، دون أن نزعم المطابقة، بل نحن نعرض كلام المؤلف ونُدخل عناصر تلائم اللسان العربيّ، ممّا نظنّ انه مفيد لإضاءة بعض الجوانب في تطبيق نظرية الوجوه الدلالية.

مقدمة

يتطرّق جورج كلايبار (Georges Kleiber) إلى مسألة تفسير ظاهرة المشترك (polysémie) منطلقا من عرض بعض الأمثلة:

---

(1) Georges Kleiber: Problèmes de sémantique: la polysémie en questions. Presses Universitaires de Septentrion, 1999, p-p.87-101.

جورج كلايبار: مسائل في علم الدلالة: المشترك الدلاليّ موضع تساؤل. مطابع سبتنتريون الجامعية، 1999. ص-ص87-101.

1. إنه كتاب ضخم نو تصاوير كثيرة ملوّنة.

2. إنه كتاب كثيف عسير الفهم.

3. أعاد زيد طلاء النافذة.

4. خرج عمرو من النافذة.

ويبرز كلاييار انّ معنى كتاب في 1 و2 ليس واحدا وكذلك معنى النافذة في 3 و4 ليس المعنى ذاته. فكيف نتفطن إلى هذا التنوّع؟

نعلم انّه توجد ثلاث طرق لمعالجة هذا الاختلاف: تتمثّل الطريقة الأولى في اعتبار انّ كلمة (كتاب) وكلمة (نافذة) تحمل كل واحدة منهما معنيين اثنين. فالكتاب شيء ماديّ وهو كذلك نصّ مجرّد. والنافذة شيء ماديّ وفتحةٌ. امّا الطريقة الثانية فتتناول الاختلاف المذكور من زاوية الإحالة غير المباشرة وتحلّ المشكلة معتبرة انّ الأمر يتعلّق بتغيّر المرجع عبر الوظائف التداولية (G.Numberg,1978,M.Bierwisch,1983 et Fauconnier,1984) أو بتغيّر هيئات اخرى (Kayser,1987).

وامّا الطريقة الثالثة فتحتفظ بمعنى (كتاب) و (نافذة) وبمرجعيهما وتفسّر اختلاف التأويل الملاحَظ إمّا عبر إجراء حذف (G.Gross,1990 & (ellipse) (D.Le Pesant,1996 مما يؤدّي إلى إحداث التكافؤ الدلاليّ بين الجملة المحذوفة والجملة غير المحذوفة(المذكورة) (C.Molinier,1988) إمّا باعتماد مبدأ تداوليّ عامّ للتوليد الإسناديّ او باعتماد مبدأ المجاز المرسل المُدمَج (métonymie intégrée) الذي وُضّح في (1990,1991,1994) (G.Kleiber) وفي الفصل الخامس من كتاب كلاييار (G.Kleiber,1999) وفي (G.Kleiber et M.Riegel (1989et1991).

وهو مبدأ يُقنّن التغيّرات الملاحظة اعتمادا على البروز في علاقة الجزء بالكلّ. والملاحظ انّ الأصوليين والمفسّرين يعتبرون المجاز المرسل ومجاز الحذف بمعنى، بما يعني انّ اختلاف صيغتيْ الطريق الثالثة – كما عرَضها كلايبار- هو اختلاف غير تمييزيّ. ولعلّ طبيعة المصطلح في كلّ صيغة تبيّن خصوصية الاقتراض التركيبيّ او الاقتراض البلاغيّ لحاصرة الظاهرة الدلالية. وههنا يقدّم كلايبار مقترحه ليبيّن درجة الإضافة عبر التصرّف في المصطلح البلاغيّ المألوف (المجاز المرسل)،إذ اضاف له نعت "المُدمَج" (أُنظر أسفله شرح مفهومه) .

يقترح بوستيفسكي (J.Pustejovsky,1995) مفهوم الجريد المفهوميّ المعجميّ (paradigme conceptuel lexical) المختصَر في (LCP) ليشير إلى انّ الوحدة المعجمية تجمع معاني مختلفة بحيث انّها تحيل في كلّ مرّة على احد المعاني المجمّعة ومجموعة هذه المعاني ايضا. لذلك نلحق بالنافذة مثلا نمطا معقّدا يُدعى منقّطا: "شيء فيزيائيّ وفتحة" بما يسمح بقبول التأويلات الثلاثة الممكنة للفظة نافذة، فهي إمّا شيء ماديّ فحسب كما في الجملة 3 او هي "فتحة" كما في الجملة4 او هي تأليف بينهما كما في الجملة 5:

5. 1- احبّ النوافذ.

ب- خرج زيد من النافذة التي طلاها عمرو.

ذلك انّه من غير الوارد خصوصا في الجملة 5. 1- الفصل بين "الشيء المادي" و"الفتحة" والملاحظ انّ الجملة 5. ب- يمكن اعتبارها ضربا من الاستخدام البلاغيّ حيث إنّ الضمير المتصل في (طلاها) لا يعود إلى النافذة بمعناها الأوّل وهو الفتحة التي خرج منها زيد، بل بمعناها الثاني

وهـو "الـشيء المـادّيّ الـذي يـتمّ طـلاؤه. والاسـتخدام يعبّـر عنـه كلايبـار بالإحالـة المتخالفـة (anaphore divergente) . ويلـحّ بوستيفـسكي علـى انّ الأمر لا يتعلّق بمعاني مختلفة حقيقة، بل بمظاهر مختلفة.

ويشير كلايبار إلى انّ كروز (1996) (D.A.Cruse) قد اقترح تحليلا شبيها بتحليـل بوستيفـسكي ولكنّـه طعّمـه بمـصطلح جديـد هـو الوجـوه (les facettes) والفـرق بـين التحلـيلين انّ كـروز حـاول بهـذا المقـترح أن يتجاوز مشكل المشترك من جهة وان يوفّر الوسائل الضرورية لتحديد هذا المفهوم الدلاليّ الجديد للوجوه.

وقـد بـيّن كلايبـار انّ مـصطلح الوجـوه يتنـوّع مدلولـه بتغيّـر مـستعمليه، فتصوّر كروز له لا يطابق تصوّر غيره له (S.De Vogüé et D.Paillard (1997) et J.J.Franckel, D.Paillard et Saunier (1997)) . والافـتراض الأساسيّ الذي يقوم عليه تحليل كروز يتمثّل في كون الوحدات المعجمية يمكنها –رغم كونها ذات محتوى دلاليّ موحّد او جامع اي رغم انّها ليست قائمة على الاشـتراك- ان تقدّم مكوّنات –هي الوجوه- بوسعها ان تظهر وحدها في الاستعمال ومن ثمّة فهي تُحدث تنويعا في معنى اللفظة غير قائم على الاشتراك وليس مجرّد تغيّر سياقيّ لها(اي اللفظة).

تمثّل الوجوه "درجةً من الاستقلالية عاليةً" مثل معاني لفظةٍ قائمةٍ على الاشـتراك. وتتجسّد اسـتقلاليةُ الوجـوه النـسبيّةُ عـبر اربـع خـصائص. اولاها انّ كلّ وجه "ينبغي ان يستقبل تمثّلا طرازيا مستقلاً" (D.A.Cruse, 1996:94) ومـــن ثمّـــة فـــإنّ وجهـــي الكتـــاب يحـــتملان طـــرازين مختلفين: "المجلّدات" الطرازية والنصوص الطرازية.

ثانية الخصائص تتمثّل في كون كلّ وجه "يمكن ان تكون له علاقاته الدلالية الخاصّة" (Cruse, 1996:94) فتكون القصيدة نوعا من النصوص لا من

المجلّدات ويكون السِفْر نوعا من المُجلّدات لا من النصوص. امّا الخاصية الثالثة فتتمثل في التوكيد (نفسه، ذاته، عينه) عندما يتبع الشيء المؤكّد، يمكن ان ينطبق على ايّ وجه من الوجوه، كما يبيّن ذلك التقابل بين المثالين 7. ا- و7. ب-:

7. ا- لا اهتمّ بالطباعة والتسفير، بل الكتاب نفسه هو الذي يعنيني.

7. ب- لا يهمّني مضمون الكتاب، بل يعنيني الكتاب نفسه.

فالجملة 7. ا- يحيل فيها المركّب التوكيدي على المضمون امّا الجملة7. ب- فيُحيل فيها المركّب التوكيديّ على الشكل والمادّة الخارجية.

امّا الخاصية الأخيرة فتتمثل في انّ كل وجه بوسعه ان يتصرّف بشكل مستقلّ (D.A.Cruse, 1996:94) بحيث يمكن ان يتولّد الغموض في بعض الحالات، مثال ذلك التأويل المزدوج للمركّب الاسميّ النعتيّ كتاب جديد:

8. كتاب جديد=(i) [مجلّد] جديد

(ii) [نصّ] جديد

هذه الخاصيات الأربع تضع الوجوه إلى جانب المشترك اللفظي. وما يميّز الوجوه عن المشترك هي "وحدة المفهوم العامّ في الوجوه" (D.A.Cruse, 1996:94) .

ويمكن استخراج خمس سمات لهذه الوحدة: فالمفهوم العامّ يمثّل اوّلا صورةً (gestalt) واحدةً، لكن وعي المتكلّم العاديّ غير متطابق، فهو يعلم انّ كلمة (plateau) في الفرنسية تدلّ على طبق الأكل وعلى مكان التصوير

وعلى الهضبة..ولكنّه لا يُحيط علما بالمفهوم العامّ للكلمة. ثانيا يحتلّ المفهوم العامّ موقع المستوى القاعديّ في نطاق علم الدلالة الطرازيّ (E.Rosch, 1976) ولا تحتلّه الوجوه معزولةً. [يُشير كلايبار إلى انّه لم يفهم هذه السمةَ، ولا نحن! (المترجم)]. امّا السمة الثالثة فتتصل بالبعد الأفقيّ، إذ ينبغي أن يكون الطراز اي النمط الجيّد لمَقُولة الكتاب ممثلا وجهيْ[المجلّد] و[النصّ] كليهما ولا يقتصر على احدهما. فلا يُقبل ان يكون لكلّ معنى من معاني اللفظة المنتمية إلى المشترك طراز خاصّ به. ففي حين اننا نفهم انّ الكتاب الطرازَ شيء محسوسٌ ونصٌّ في ان واحد، فإنّنا نجد عددا من طُرُز (plateau) مساويا لمعاني (plateau) .

والسمة الرابعة التي نكرها كروز (D.A.Cruse, 1996:95) انّه توجد مسانيد (prédicats) يمكن ان تنطبق على المفهوم العامّ لا على الوجوه:

9. اشتريْتُ كتابا امسِ. (فإنا لم اشترِ النصّ وحده او المجلّد وحده)

امّا السمة الخامسة فتتعلّق بغياب التنافس بين الوجوه. ففي حين انّ التنافس يشتدّ بين الكلمات القائمة على المشترك، فإنّ مختلف الوجوه الدلالية - مثلها في ذلك مثل الوحدات المعجمية القائمة على الجناس- لا تتعارض بل يمكن ان تترابط فيما بينها، دون ان تقع مفارقة:

10. مُمِلٌّ هذا الكتاب، بيدائه مُحَلّى بتصاويرَ وهو جيّد التسفير.

او ان يقعَ استخدامٌ بالمعنى البلاغيّ: "وهو انْ يَرِدَ ضميرٌ عائدٌ على كلمةٍ من المشترَك ذُكرت قبل الضمير بمعنى ويُحيل الضمير على معنى لها اخر، ومثال ذلك قول معاوية بن مالك [من الوافر]:

إذا نـزل الـسماءُ بـأرض قـوم رعيْنـــاه وإنْ كـــانوا غِـــضابا

فلفظة السماء تعني الغيثَ وتعني النبات ايضا بدلالة عوْد الضمير عليها. فـأراد بالسماء المعنـى الأوّلَ وهـو المطر، وبالضمير في قوله (رعَيْناه) اراد النبات الذي تسبّب المطر في إنباته، وقد قصد الشاعر المعنيين في كلامه إذ لو قصره على واحد فقط لفسد الكلام وهجن[1]

ففـي مثـال كلايبـار 10. اسـتُعمل الكتـاب لفظـا مـذكورا بمعنـى المحتـوى والمـضمون واسـتُعمل ضـميرا متّـصلا في (بيد انّـه) ومنفـصلا في (وهـو) بمعنـى الـشكل والهيئـة الخارجيـة. وههنـا نلاحـظ انّ العلاقـة بـين معنيـي الكتاب او "وجهيْ" بعبارة كلايبار نقلا عن كروز هـي علاقة الجزء بالكلّ وهـي تخـالف علاقـة المجـاز المرسـل المعهودة، إذ ليست العلاقـة ثنائيـة بـين حقيقـة معدول عنهـا ومجـاز معدول إليـه، بل هـي علاقـة ثلاثيـة بـين معنـى طرازيّ جامع: الكتاب: شكلا ومحتوى

ومعنيْن جزئييْن: الكتاب محتوى: مُمِلٌّ

الكتاب شكلا: مُحلّى بتصاوير

+ جيّد التسفير

ولعلّ طبيعة الصفة تجانس وجه المعنـى: فلمّـا كان الملل حدثا نفسيا، فقد ائّجـه النعـتُ إلى الناحيـة المـضمونية. وبمـا انّ التحليـة والتـصاوير وجـودة التسفير ممّا تُلتمَس بالحواسّ وتُدرَك بها، فقد ائّجهت إلى الناحية الشكلية المادّيّة.

---

(1) عبد الواحد حسـن الشيخ، 1999، ص.169.

ومن ثمّة ابقى المثال على وجهي المعنى متوازيين متعايشيْن لا نحتاج إلى طيّ احدهما لنَصل إلى الأخر كما هو الحال في الكناية او المجاز المرسل عادةً، ولعلّ هذا ما جعل كلايبار يتحدّث عن مجاز مُرسَل مُدمَج (métonymie intégrée) (G.Kleiber, 1990, 1991, 1994,1999) تمييزا له عن المجاز المُرسل ذلك الوجه البلاغيّ المعهود.

فالعلاقة بين المجاز المرسل والحقيقة هي علاقة انتقال دلاليّ من نسق إلى نسق اخر، امّا في المجاز المرسل المُدمَج فيوجد محافظة على نسق واحد تتمّ فيه "قسمة" الدلالة بشكل متوازٍ:

11. قرأتُ الكتابَ.

12. قرات الكتاب الذي كانت طباعته فاخرةً.

فإذا اعتبرنا انّ المثال11 يحتوي مجازا مرسلا، أمكن لنا اعتبار انّ المتكلم يقصد انّه قرا جزءا من الكتاب ونكَر الكتاب مجازا، لكن يحقّ للمعترِض ان يقول ما الدليل على جواز الانتقال من الحقيقة إلى المجاز وما القرينة على ذلك، ولِمَ لا يكون مقصد القائل الحقيقة؟

هنا نعتبر انّ الحقيقة ارجح ولكنّ احتمال إرادة المجاز ليس مُلغى إلغاء تامّا، فانعدام قرينة المجاز لا ينفي إمكانية المجاز ولكنّه يجعله بعيدا.

فإذا سلّمنا جدلا انّ القول 11 يقوم على المجاز المرسل الذي علاقته إطلاق اسم الكلّ على الجزء[1]، فيكون المعنى انّ المتكلّم قرا بعض اجزاء الكتاب ويكون تحليل القول 12 في مقارنة مع القول 11 كما يلي:

---

(1) الزركشي:1988، ج2، ص279.

ق11

المنكور	المقصود
الكتاب	جزء من الكتاب
الكتاب	محتوى جزء من الكتاب

ق12

المنكر	المقصود
الكتاب	كلّ الكتاب
الكتاب	شكل الكتاب

فالمثال 12 لا يتأسّس على مجاز مرسل من نوع إطلاق الكلّ وقصد الجزء، لأنّ التخصيص واقع لا في محتوى المقروء بل في شكله ويبدو أنّه من العسير اعتبار المثال 12 ضربا من "التجوّز عن المجاز بالمجاز"[1] وهو أن تجعل المجازَ المأخوذَ عن الحقيقة بمثابة الحقيقة بالنسبة إلى مجاز آخر، فتتجوّز بالمجاز الأوّل عن الثاني لعلاقة بينهما[2] ويضرب الزركشي مثالا هو قوله تعالى: ﴿وَ لَكِنْ لاَ تُوَاعِدُوهُنَّ سِـــرًّا﴾ (البقرة:235)، فإنّه مجاز عن مجاز فإنّ الوطء تُجُوِّزَ عنه بالسّرّ، لأنّه لا يقع غالبا إلاّ في السّرّ وتُجُوِّزَ بالسّرّ عن العَقْد، لأنّه مُسَبَّب عنه، فالصحيح للمجاز الأوّل الملازمة والثاني السببية والمعنى: "لا تُواعدوهنّ عقْدَ نكاحٍ"[3]. وقد "رجّح الطبري أنّ لفظة السرّ في الآية يُراد بها الزنا، وما قاله ابن عبّاس أظهرُ وذلك بأنْ يصرّح

---

(1) الزركشي:1988، ج2، ص311.

(2) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(3) الزركشي:1988، ج2، ص311-312.

لها برغبته الزواج بها"[1]. والملاحظ انّ تفسير (سرًا) في اية البقرة بالوطه كما عند الطبريّ او بالتصريح بالرغبة في الزواج كما عند ابن عبّاس او بعقد النكاح كما عند الزركشي، كلّ هذه الوجوه لا تستند إلى معنى معجميّ لكلمة (سرّ) كما انّها تُهمِل البنية التركيبية للجملة، فقد تُحمل لفظة (سرًا) على الحاليّة او على المفعول له، فضلا عن إهمال نيل الأية: ﴿إِلاَّ أَنْ تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفًا﴾ فهذا الاستثناء، يستدرك على النهي ويُقيّده. وقد ذهب مُجاهد إلى انّ "السرّ هو قول الرجل للمراة: "لا تفوتيني بنفسك فإنّي ناكحُكِ" وهذا لا يَحلّ"[2].

ومثلما انّ دلالة (سرًا) عند المفسرين لم تطابق دلالتها اللغوية، فإنّه لا يجوز لنا ان ندّعيَ لها دلالة اصطلاحية، ولكن يبقى الأمر ائساعا يقبل تأويلات عديدة تتراجح فيما بينها وفق مدى استجابة كلّ واحد منها للمقصد الأسنى وهو التعفّف المحضوض عليه شرعا وعُرفا، ووفق مدى مراعاة التأويل للمعطيْن التركيبيّ والدلاليّ للأية.

ولا تقتصر ظاهرة المشترك على ما سبق نكره، بل تتّسع لتشمل الكيانات والمنشآت ولا تقف عند حدود الحقل الدلاليّ للاشكال المكتوبة (الأسماء والضمائر...) فكلمات مثل بنك ومدرسة ومستشفى... يتمّ تنشيط بعض الوجوه فيها مثل [البناية] و[المؤسسة] و[الموظّفون][3]:

---

(1) الطبري: مختصَر تفسير الطبري، مج1، ص75، الهامش.

(2) المرجع نفسه، مج1، ص75.

(3) ينكر كروز حالة الأمّ التي تنفتح على قراءة باعتماد الوجه [الوالدة] وقراءة اخرى باعتماد الوجه [المربّية]:

(i) هند ربّتني، لكن ليلى هي امّي الحقيقية [الوالدة].

(ii) ليلى ولدتني، لكن هندا هي امّي الحقيقية [المربّية].

13. احترق البنك الموجود في الشارع الرئيسيّ ليلة البارحة. [البناية]

14. كان البنك بي حفيًا. [الموظّفون]

15. تأسّس البنك سنة1920. [المؤسّسة]

ويـرى بوستيفـسكي (J.Pustejovsky,1995:92)، مُحقًـا، انّ هـذه الظـواهر توجد في عدد من المقابلات المعهودة:

أ. المحتوِي/ المحتوَى

ب. السبب/ المسبّب

ج. المحل/ الحالّ

د. الشيء/ما يؤول إليه

هـ. اللازم/ الملزوم

و. الكل/الجزء

وهذه من علاقات المجاز المرسل المعهودة في البلاغة الكلاسيكية، كما لا يخفى.

إنّ مقترح نظرية الوجوه يتجاوز إطار تحليل الأمثلة المتّخذة في نقطة الانطلاق، إلى المصادرة على صيغة جديدة لدراسة تعدّد المعنى وعلى وجوه مفهوم عامّ حيث تلوح طرافتها في استقلالية الوجوه والمعنى الواحد وفي السمة الموحّدة للكلّ المفهوميّ في الوقت ذاته. فإذا تحقّقنا انّها مؤسّسة، فإنّ مشهد علم الدلالة المعجميّ سيتغيّر بشكل واضح كما ستتغيّر طريقة معالجة بعض التنويعات التأويلية ايضا. وخصوصا انّ الجزء الدلالي سيتدخّل في بعض المجالات كالانزلاق او الانتقال المرجعيّ إذ اصبح جاريا منذ ننبرغ (G.Nunberg,1978) امرُ إرجاع النفوذ

"التأويلي" إلى مبادئ تداولية عامّة لا إلى بنى دلالية. فضلا عن تدخّل البعد العرفانيّ بما أنّ الوجوه مُقدّمة "بشكل دائم في المعجم الذهنيّ" (كروز، 1996، ص95) [1]. فالوجوه تشكّل أجزاء مستقلّة نسبيا عن المفهوم الذي تعقده المُفردة المعجمية، باعتبار أنّ الدلالات_وهي إحدى المبادئ الأساسية في علم الدلالة العرْفانيّ_ كيانات ذهنية. فمن المفيد أن نتبيّن عن كثب كيف تقدّم هذه "الفصيلة" الجديدة من الكيانات الدلالية ذاتها.

◆ بعض الصعوبات

بيّن كلايبار أنّ معايير تحديد الوجوه بالنسبة إلى الوحدات المعجمية ليست صالحةً في كلّ الأحوال، إذ أنّ إضافة توكيد للوحدة المعجمية، قد يُوقع في اللغو:

16. لا أهتمّ بالطباعة أو التسفير، بل الرواية نفسها هي التي تهمّني.

17. ؟ لا أهتمّ بالمحتوى/بالقصّة، بل الرواية نفسها هي التي تهمّني.

فالسمة الرابعة للاستقلال لا توجد مع رواية بما أنّ كلاً من الوجهيْن [المجلّد] و[النصّ] لا يشتغل بسهولة. فمن جهة لا تنطبق النعوت التي تتبع الوجه [مجلّد] للكتاب، على رواية:

---

(1) يشير كروز في مقدّمة مقاله (D.A.Cruse,1996:93) إلى انتمائه إلى تيّار اللسانيين العرفانيين مثل لايكوف (Lakoff) ولانقاكير (R.W.Langacker) وفيلمور (C.Fillmore). إنّ ما يجمع اللسانيين العرفانيين رغم اختلافات الرأي الهامّة هو اعتبار الوقائع من الحقل اللسانيّ بوصفها انعكاسات لوقائع عرفانية وبوصف بنى المعرفة العامّة ومساراتها تُعلّل تعليلا طبيعيا.

18. أ- كتاب احمر/ممزّق/مئسخ[مجلّد]

ب-؟رواية حمراء/ممزّقة /مئسخة(مجلّد)

ومن جهة اخرى، وهذا امر حاسم، لا يوجد غموض بالنسبة إلى تاويل8/:

8. كتاب جديد= (i) [مجلّد] جديد

(ii) [نصّ] جديد

ولكن لا نتوفّر على قراءة مزدوجة في المثال 19.:

19. رواية جديدة= (i) :[مجلّد] جديد

(ii) [نصّ] جديد

ولا تبدو السمتان الأوليان "للاستقلالية" مفيدتين هما الأخريان ولكن لأسباب مختلفة. يمكن الاحتفاظ بالسمة الأولى بالنسبة إلى رواية مُسبقا، من جهة كوننا يمكن ان نقدّر في الوقت ذاته صورةً طرازيةً لشكل الرواية (كتاب-شيء نو غلاف مُعنوَن وعليه اسم المؤلّف والناشر وإشارة تحت العنوان تبيّن انّها رواية) وطرازا لوجه [النصّ] (بمعنى ما تمثّله الرواية الطرازية لنا). ونلاحظ مع ذلك انّ طراز الوجه [مجلّد] ليس واضحا بقدر وضوح وجه [النصّ] وانّه ليس بمجرّد كتابة كلمة رواية تحت العنوان، ينفصل طراز [المجلّد] عن سائر طُرُز الكتب [المجلّدات]. وكذلك الأمر بالنسبة إلى كتاب، فليس بديهيا وجود طرازيْن يوافقان كلّ وجه من وجوه الكتاب، كما يظنّ ذلك كروز. والوضعية هي نقيض وضعية الرواية . إنّ طراز الوجه [نصّ] غير مُقنع تمام الإقناع بالنسبة إلى كتاب في حين انّ طراز الوجه [مجلّد] واضحٌ. ممّا يعني اننا لا يمكن ان نمحّض الثقة في المعيار الأوّل للتعرّف على الوجوه. وقد يدلّ ذلك ايضا على انّه من الأفضل

- من زاوية نظر عرفانية- الحديثُ عن طراز واحد للكتاب كما للرواية ومن ثمّة الذهاب إلى عكس التفريق الطرازيّ للمفهوم المتّصل بهذين المفردتيْن.

امّا السمة الثانية، وهي التي تقدّم الصلات الدلالية الخاصّة التي يمكن لكلّ وجه دلاليّ ان يعقدها، فليست بقيقة لسبب اخر بعيد عن المفردة المعجميّة رواية او كتاب . ولا تتعلّق هذه الخاصية مباشرة بكتاب او برواية، بل هي تتعلّق بالوحدات المعجمية نصّ ومجلّد او جزء. فإذا كانت القصيدة مثلا، مُتضمَّنة (hyponyme) في اللفظ الذي يُستعمل في تسمية الوجه [نصّ] وليست متضمّنة في اللفظ الذي يُستعمل في تسمية الوجه [مجلّد]، فإنّ ذلك لا يدلّ في شيء على وجود الوجوه الدلالية واستقلالها بالنسبة المفهوم المتصل بكتاب او برواية، ولكنّ القصيدة تسجّل ببساطة إفادة علاقة التضمُّن (inclusion) (متضمِّن hyperonyme ومتضمَّن hyponyme) او عدم إفادتهما:

20. 1- القصيدةُ نصٌّ.

ب-؟ القصيدة جزء/مجلّدٌ.

والنتيجة انّ رواية لا تمثّل مفهوما عامّا يتركّب من وجهين مستقلّيْن نسبيًا هما [المجلّد] و[النصّ]. والحاصل انّ بعض الأمثلة تُبيّن قصور مفهوم الوجوه الدلالية عن تبيّن ضروب "الانزلاق المرجعيّ" كما في المثاليْن:

21. 1- إنّها رواية تقع في 300 صفحة [مجلّد]

ب- إنها رواية ضخمة ذات تصاوير كثيرة ملوّنة (المجلّد]

ج- لقد سفّرْتُ روايتيْن لحنّا مينه امسِ (المجلّد]

22. ا- إنها رواية كثيفةٌ عسيرةٌ على الفهم (النصّ)

ب-كتب زيدٌ روايةً (النصّ)

ج- تحكي هذه الرواية قصةَ الطوارق (النصّ)

ويمكن ان نركن إلى مهرب يتمثل في الإقرار بتوليد الخطاب للوجوه. فقد ميّز كروز (95:1996) بين الوجوه "المضبوطة أي تلك الممثلة" بشكل مستمرّ في المعجم الذهنيّ والوجوه التي تفتقر إلى ايّ تمثيل دائم ولكنها نتاج مسار توليديّ يفرزه سياق مخصوص، وقد جاء هذا التمييز لتجاوز الصعوبة التي تشكّلها الوحدات المعجمية التي لا تستجيب لمعاييرَ تبيّن الوجوه ولكنّها تمثّل -مع ذلك- تنويعا خطابيا للوجوه. فالرواية لا تحمل سوى وجه واحد هو (النصّ) ولكن يمكنها ان تُستعمل للدلالة على شيء مادّيّ، في استعمالات مثل 21. وذلك لأنّ "الوجه المادّيّ تَوَلّدَ من اجل تلك الغاية تحت تأثير السياق" (كروز، 96:1996) . وهذه الإضافة لا تنقذ الاشياء إلاّ في الظاهر، فالأمر يتعلّق بحلّ من اجل غاية معيّنة ولا يسمح بتجنّب الاستنتاج المذكور اعلاه. فإذا استطعنا تفسير تأويل مرجعيّ للوجه بكونه إفرازا سياقيا، فلا شيء يمنع من التفكير انّ كلّ تأويلات الوجه يمكن تفسيرها على ذلك النحو. دون ان تكون لنا حاجة إنن إلى المصادرة على نوع جديد من الكيانات الدلالية.

• كم يوجد من وجه؟

ثمّة حاجز آخر يعترض أطروحة الوجوه الدلالية: إذ ما عدد الوجوه المفيدة بالنسبة إلى مفردة معجمية؟ وما درجة عموميتها؟

إنّ الأمثلة المعروضة اعلاه تُوحي إلى القارئ بأنّ عدد الوجوه المفيدة بالنسبة إلى مفردة معجمية ينحصر في اثنين او ثلاثة وانّها يمكن ان

تُصنَّف إلى مقولات دلالية عامّة جدًا نحو: مجرّد/محسوس/حي/بشريّ. فبالنسبة إلى كتاب، كما يلاحظ ذلك كروز، وجه(النصّ) مجرّدٌ في حين أنّ وجه (المجلّد) محسوس، أمّا بالنسبة إلى بنك فإنّ الوجه (البناية) محسوس، والوجه (الموظّفون) بشريّ والوجه (المؤسّسة) مجرّد، أمّا بالنسبة إلى أمّ فإنّ الوجه (التي تلد) فهو حي/بيولوجيّ أمّا الوجه (المرضعة) فهو بشري/اجتماعيّ. إنّ هذا التحديد المزدوج لعدد الوجوه بالنسبة إلى المفردات وللسمة الأنطولوجية العامّة للمقُولات التي تنتمي إليها، هو أمر ضروريّ لضمان وضعية صالحة للوجوه. فلو كانت الوجوه كثيرة جدًا وذات سمة دلالية أو مرجعية شديدة التنوّع، لفقدت وضعيتها كيانا دلاليا مخصوصا، لتلتحق بصفّ المكوّنات الدلالية الأخرى. والسؤال الأساسيّ، هو إذن ما إذا كان مثل هذا التحديد مُعلَّلا أم لا.

إذا ما اتّكلنا على التنويعات المرجعية الخطابية، تبيّن لنا أنّ التحديد غير معلّل، لأنّنا متى تبنَّينا نظرةً ذرّيّةً للإحالة نحو ما فعله كايزر (D.Kayser,1987)، فإنّنا نجد أنّ كلمة مثل كتاب لا تعطينا فقط تنويعات عامّة مثل(نصّ) مجرّد/ (مجلّد) محسوس. إنّها تعدّديةٌ للمراجع الممكنة يمكن أن يُحيل الكتاب عليها، كما تبيّنه الأمثلة التالية لكايزر (1987:38):

23. أ- ذهب زيد إلى الريف لكتابة كتاب.

ب- لقد أثر هذا الكتاب في الثوريين، ثورة 1789.

ج- مثّل هذا الكتاب فشلا ذريعا للناشر.

إذ يُحيل الكتاب - بالترتيب- على شيء (مخطوط، قرص، إلخ.) وعلى أفكار محتواة في هذا الكتاب وعلى تسويق الكتاب والاتّجار فيه. بعبارة أخرى،

فإذا توخّينا معيار إبراز الوجوه اي ان يتنوّع التأويل بفعل تغيير المسند (prédicat) او السياق (contexte)، فإنّه لا توجد حدود لعدد الوجوه وللاصناف الدلالية للوجوه. والوضعية نفسها نجدها في قواعد التفريع في النحو التوليدي إذ يبدو عدد السمات محدودا في البداية وتحظى السمة العامّة بمردود وفير ولكننا نلاحظ عدم وجود حدود نقف عندها كما انّ تحليل المفردات التوليفي يجلب سمات تتعدّد شيئا فشيئا وتنحو نحو الخصوصية. فنحن لا نستطيع تفادي تكاثر الوجوه متى قبلنا تكاثر المراجع. وبناءً عليه، فإنّ إفادتها تنوب في خضمّ هذه الوفرة (prolifération). والوجوه التي تُوضع درجة عموميتها جانبا، هي وجوه لا تتميّز عن سمات دلالية اخرى هي اقلّ تجريدا من الوحدات المعجمية (les lexèmes) .

ومع ذلك، فإنّنا نرى ما يمكن ان يجعلنا نتبيّن انّ هذه السمات هي ذات وضع مخصوص يُعلّل حديثنا عن الوجه الدلالي. إنّها خاصية التعميم: ولمّا كانت تلك السمات تنطبق على عدد كبير من المفردات المعجمية وكانت المفردات المعجمية لا تمثّل في العادة إلاّ سمة واحدةً، فإنّ الاتجاه ينحو نحو إضفاء وضع دلاليّ مخصوص للسمات، مستقلّ من بعض الوجوه، متى وجدنا انفسنا إزاء مفردة معجمية تقدّم سمات كثيرة. وهو اتجاه يُقوّيه تأثير المسانيد التي لا تختار غالبا إلاّ إحدى تلك السمات، وهو ما تُنكّرنا به قواعد التفريع التي تقوم بالانتقاء.

وثمّة ايضا خاصّيّةُ التعميم وكونُ المراجع تنقسم في العادة بحسب تلك الأصناف الأنطولوجية التي تجعل الانتقال من "وجه" إلى اخر بالنسبة إلى مفردة واحدة معتبَرا بوصفه تغيّرا في المرجع. وههنا نشرع في النقطة النقدية الثالثة التي تتصل -هذه المرّة- مباشرة بمعالجة تنوّع تأويليّ للمثالين1/و2/. وليست هذه النقطة النقدية متوجّهة إنن ضدّ الوجوه

الدلالية إلاّ لأنّ هذه الوجوه تمثّل الوسيلة التي اختارها كروز لوصف الظاهرة التأويلية بهمّة ونشاط في المثالين 1/ و2/. وعلى الرغم من أنّ الحلّ الذي اقترحه كروز للمشكل الذي طرحه المثالان 1/و2/ هو حلّ دلاليّ، فإنّه تبنّى مع ذلك أطروحة تغيّر المرجع من 1/ إلى2/. إنّ المكوّن الدلالي إنمّا يخوّل لنا تفسير كون المركّب الاسميّ المحتوي على الاسم كتاب يدلّ على الكتاب شيئا مادّيا في 1/ ويدلّ على الكتاب شيئا مجرّدا في 2/ وذلك بواسطة انحراف (biais) الوجوه. وإنّ تفسيره تصدق عليه – للوهلة الأولى- النقاط النقدية التي توجّهنا بها إلى القائلين بتنويع المرجع.

❖نحو مخرج آخر

لن نعيد عرْض الحجج المضادّة التي أمكننا صياغتها ضدّ مثل هذه الأطروحة ولكن حسبنا أن نبيّن انطلاقا من بعض المعطيات المنتسبة إلى كتاب وإلى رواية، فيمَ يُسعفنا افتراضنا عن المجاز المُرسل المُدمَج (métonymie intégrée) بتفسير أكثر كفايةً من تفاسير كروز وبوستيفسكي (J.Pustejovsky) .

ولْنذكّر بدايةً بتحليلنا للأمثلة 1/و2/ و21/و22/. إنّ موقفنا واضح: لا يوجد تغيّر في المرجع ولا عدم تماثل مرجعيّ (dissimilation) من 1/إلى2/ أو من21/ إلى 22/. ففي كلّ مرّة يحيل كتاب ورواية على نفس المَقُولة المرجعية. والحقّ أنّ المُسنَد لا يُنشّط إلاّ منطقة (أُنظر لانغاكير R.W.Langacker, 1984&1987، وأُنظر أسفله الفصل السادس من هذا الكتاب) أي لا يُفعّل إلاّ جزءا من المرجع العامّ، بما يفسّر الأثر التأويليّ الذي سيلاحظه كلّ المعلّقين، ولكنّه لا يكفي لزحلقة الإحالة. ذلك أنّ

المصادرة 24/-وهي النقطة الأساسية في افتراضنا وهي التي تتأسّس عليها التحاليل القائلة بحصول تغيّر مرجعيّ- هي مصادرة خاطئة:

24. إذا ابرز مُسنَدٌ س او سياق مخصوصٌ جزءا من كيانٍ س، فإنّ ذلك الجزء يصبح المسند إليه الحقيقي، اي مرجع العلاقة الإسنادية س ص. وبعبارة اخرى، فإنّ إثباتا س ص لا يتعلّق بس إلاّ إذا كان س كاملا هو الذي يحدّد ص.

إنّ المسند يمكن ان يكون صادقا عن كيان فرديّ او عن مجموعة من الأفراد -كما بيّنّا ذلك مرّات عديدة- دون ان تُرْضيَ كلّ اجزائه او كلّ اعضائه ذلك المسنَد بالضرورة. إنّ "جزءا" من المرجع مفردا او جماعيا يسمح بإثبات المرجع كلّه (في عموميته) وفق شروط سنفصّل القول فيها في الحين، وذلك بفضل ما اسميناه <u>مبدأ المجاز المرسل المُعمَّم</u>:

25. بعض الخصائص التي تسم بعض الجزاء، يمكن لها إن تسم الكلّ.

إنّ ما يسمح بالمرور من الجزء إلى الكلّ، هو كون الخصائص المعنيّة بالامر، تكون بشكل او بآخر بارزةً او صالحةً بالنسبة إلى الكلّ. وبعبارة اخرى، ان تنعكس الخصائص على المرجع المُتَبَيَّن في عموميته وان تكون هذه الأسباب التي تجعل المرجع العامّ هو المختار بوصفه مسندا إليه وليس الجزء فحسب هو الذي يحدّد المسند بشكل اضْيَق او اكثر مباشرة:

هكذا فإذا كان لنا المثالان:

26. يزن زيد 100كيلوغرام.

27. زيد نكيّ.

فلا حاجة لنا إلى تغيير المرجع مع تغيير المسند: وإن لم ينطبقْ إلاّ على وجه لزيد، فإنّ الجزءَ المعنيّ والمسند الذي ينطبق عليه، يبدُوان بارزيْن بالنسبة إلى الفرد كلّه.

فالحلّ الذي نقترحه يخوّل لنا الحديث عن وجه وعن مفهوم عامّ في الوقت ذاته، ولكن تلك الوجوه لا يُنظر لها بوصفها مكوّنات دلالية مستقلّة، تُحدث تغييرات في المراجع إذا ما نُشّطت. إنّها وجوه لمرجع مُعتبَر بوصفه كلّيّة عامّة، يمكن ان ينطبق عليها هذا المرجع او ذاك دون ان يكون ثمّة مع ذلك تفكيكٌ (déconstruction) للمرجع (او نقلٌ مرجعيّ) .

كما يتميّز الحلّ الذي نقترحه، بتفسير كون الرواية لا تقبل كلّ المسانيد "المانّية" التي يقبلها الكتاب، وتحديدا لِمَ لا نجد إلى جانب:

28. رواية ضخمة/ رواية سميكة/ رواية تقع في 300صفحة/ رواية ذات تصاوير كثيرة.

لا نجد:

18. ب-؟ رواية حمراء/ ممزّقة/ منسخة.

والسبب ليس قضية وجوه بشكل مباشر بل يتعلّق الأمر بارتفاع تراتبيّ ومن ثمّة فهي مسألة بُرُوز (saillance) : رواية هي متضمّنة في كتاب، وتدقيقا هي اسم يقع تحت اللفظ القاعديّ كتاب. بهذا المعنى، توجد قيمة تمييزية او تقابلية (فيارزبيكا A.Wierzbicka,1985) بالنسبة إلى سائر الأسماء التي تقع ضمن فئة كتاب. ويهتمّ نولكه (H.Nølke,1994:102) بهذه القيمة تحت مُسمّى تبئير المعانم المخصوصة (focalisation des sèmes

(spécifiques) : "كلّما كان مَغْنَمٌ مّا مخصوصا، كان انزع إلى ان يكون مُبَـأرًا، ولا يحصل التبئير في جميع الأحوال إلاّ للمغانم الأكثر خصوصيةً". فبالنسبة إلى رواية، لا يتعلّق الأمر بكتاب/شيء ماديّ مختلف[1]: فالتمييز يتمّ أولا وقبل كلّ شيء على اساس نصيّ، بشكل يجعلنا نشترط في المسند "الماديّ" المتعلّق برواية لكيْ يُقبل وفقا لمبدأ المجاز المرسل المدمج الذي اقترحناه، نشترط فيه أن يكون صالحا للكلّ أو أن يرتدّ إلى الكلّ، اي أن ينطبق المسند على الجزء النّصيّ الخاصّ برواية.

وهذا يُفهم بسهولة مع سميكة، ضخمة، تقع في ثلاثمائة صفحة وحتّى مع ذات تصاوير كثيرة، ذلك أنّ تحديد حجم الكتاب – الشيء يبدو مُفيدا بالنسبة إلى النصّ أيضا: فالتوسعات (expansions) سميكة، ضخمة، تقع في ثلاثمائة صفحة، توفّر لنا معلومات عن طول الحكاية المرويّة وحضور التصاوير الملوّنة مفيد أيضا بالنسبة إلى النصّ إذ يحدّد أنّ القراءة تتخللها (أو "تُحلّيها") تصاوير وهذه التصاوير لها علاقة ما بالمحتوى. ولا حاجة مطلقا إلى توليد وجوه (مجلّد) لهذا الغرض. فإذا لم ينطبق الأمر على حمراء، ومتّسخة وممزّقة، فلأنّ كون الغلاف أحمر أو كون الصفحات (أو حتّى الغلاف) متّسخة أو ممزّقة، فإنّ ذلك كلّه لا ينعكس على المحتوى المجرّد، أي إنّه لا ينعكس على النّصّ.

---

(1) "لا توجد –كما كتبنا ذلك سنة 1990 (G.Kleiber, 1990:133)- سمات شكلية مشتركة بين أعضاء المَقُولة المتفرّعة عن مقولة الكتب وهي الروايات.[...] فليس للرواية سمات نمونجية مُدركة تميّزها عن سائر المقولات الفرعية للكتب: فالرواية تكون إضبارةً (حزمة من الصحف) أو مغلّفة بالورق المقوّى، كما تكون صغيرة الحجم أو كبيرة الحجم، إلخ. أمّا الشكل الخارجيّ الوحيد الذي يساعدنا على معرفة أنّها رواية، فهو نكر كلمة رواية على الغلاف، ولكنّ نلك ليس كافيا بالمرّة للتحقّق من كون الأثر رواية حقّا أم ليس كذلك".

·استنتاج

ثمّة عناصر اخرى ينبغي اخذ سمة المركّب الاسميّ المخصوصة او عدم اخذها بعين الاعتبار وكذلك بَنْيَنَة (structuration) المفاهيم "الخاصّة" (مثل مفاهيم كتاب ورواية التي يمكن ان نقرّبها إلى حدّ ما بمفاهيم سيّارة)، وهي عناصر قد اقتصرنا على الإشارة إلى تعقّد تنظيمها، إلخ. ونقرّ بذنبنا انّنا لم نقترح تعريفا اكملَ لكتاب ورواية، كما كان ينبغي علينا فعله[1].

(1) Georges Kleiber: Problèmes de sémantique: la polysémie en questions, Presses Universitaires de Septentrion, 1999, p-p.87-101.

جورج كلايبار: مسائل في علم الدلالة: المشترك الدلاليّ موضع تساؤل، مطابع سبتنتريون الجامعية، 1999، ص- ص87-101.

للاستعارة التداولية

عند فيليب بلانشيه

لقد كانت الاستعارات وغيرها من "الوجوه" أو "الصور الأسلوبية" – وهي العزيزة على البلاغيين الكلاسيكيين والذين يحللون النصوص الأدبية – موضوعَ تحاليل لسانية، لعلّ أشهرها ما قام به ياكبسن.

لا تتمثل مشكلة الاستعارة، من وجهة نظر التداولية، في أنّ الجملة تحتمل معنيين اثنين، فهذا تحليل "داخليّ" يقتصر على اللسان بالمعنى الذي وضعه دي سوسير. بل تتمثل المشكلة في الواقع، في العلاقات الموجودة بين معنى الجملة الحرفيّ ودلالة القول عبر المتخاطبين وعندهم. ومن ثمّة، فقد تعلّق سورل باكتشاف المبادئ التي تسمح بالانتقال من هذا المعنى إلى تلك الدلالة. إضافة إلى أنّ المعنى الحرفيّ يقوم بدور محدود جدًا، بما أنّ جملة نحو "تنام الأفكار الخضراء التي لا لون لها ساخطةً"[1] والتي لا معنى حرفيًا لها، يمكن أن يكون لها تأويل استعاريّ، إذا ما توافرت بعضُ شروط النجاح.

---

(1) جملة شهيرة ضربها تشومسكي مثالا على استقلال المقبولية التركيبية عن الإفادة الدلالية. [المترجم]

لقد بيّن سورل انّ الاستعارات لا تشتغل بالضرورة وفق التشابه، خلافا لما يزعمه فهم شائع للظاهرة. فجملة "جون ذبّ لم تلحسْه امّه جيّدا"[1]، لا تعني انّ جون والدبية التي لم تلحسها امّهاتها جيّدا، لهما نقطة تشابه (الفِلظة والرعونة) . والواقع انّ الاعتقاد الذي يعتبر انّ الدبة التي لم تلحسها امّهاتها جيّدا، تكون عنيفةً، هو اعتقاد خاطئ، والأهمّ من ذلك انّه اعتقاد لا موجب له. إضافة إلى اننا بقولنا ذلك القول، فإنّنا لا نُثبتُ انّ الدبية – حتى التي لم تلحسها امّهاتها جيّدا! – لها سلوك شبيه بسلوك جون. فجملة "جون ذبّ لم تلحسه امّه جيّدا"، ليس لها ايّ معنى حرفيّ. فمثل هذا القول لا ينطبق إلاّ استعاريًا، وشروط نجاح إخبار حصول التشابه (بين جون والدبية) لم يقع تحقيقها.

كما انّ الاستعارات لا تعمل ايضا بتفاعل دلاليّ مع كلمات اخرى لقول يشتغل على معنى حرفيّ. فإذا كانت "جان مُثلّج"[2] جملةً تحتوي معنى حرفيًا هو معنى اسم العلَم "جان"، فإنّه لا شيء يمنع من الإحالة عليها بصيغة استعارية ويقول استعارة مركّبة، نحو "اصبحت الجاريةُ مُثلّجًا"، وخلاصة الأمر، انّ الاستعارة لا يمكن تحليلها فقط بوصفها علاقة بين مراجع (جون والدبية)، ولا يمكن تحليلها بوصفها علاقة بين العلامات (جان والمثلّج) .

ويتساءل سورل بالأحرى، ما الذي يقع إذ تترُكُ استعارةً مفتوحةً، من قبيل "جولييت هي الشمس" مكانَها لتفسيرات متعددة (نحو "يبدأ يومي عندما ارى جولييت" او "تذكّرني جولييت بالربيع")، ولا يمكن لنا البتّة ان نفسّر تلك

---

(1) عرّبنا الجملة حرفيًا، وإن كان المعنى المقصود بهذه العبارة المسكوكة انّ جون سيّء التربية، وذلك حتّى لا يفقد تحليل الاستعارة جدواه. [المترجم]

(2) نسوق الملاحظة ذاتها المذكورة في الهامش السابق. والمعنى المقصود بهذا التعبير المجازيّ انّ جان بارد، غير مبالية. [المترجم]

الاستعارة تقريبا بـ"جوليت كُرةً متكوّنةً من الغاز اساسا"؟ فثمّة، إذن، مواضعات تأويل مشتركة بين المتخاطبين. يُجملها سورل في نقاط ثلاث:

"[...] إنّ الاستراتيجيات والمبادئ التالية ضرورية فربيًا وكافية جماعيًا كي يتمكّن المتكلّم والسامع من إنشاء الأقوال ذات الشكل "س هو ص" ومن فهْمها حيث يقصد المتكلّم ان يقول استعاريًا إنّ س هو ر (حيث إنّ ص مختلف عن ر).

بدايةً، ينبغي ان يكون ثمّة إستراتيجيات مشتركةٌ على اساسها يعرف السامع انّ القول لا يؤخذ بمعناه الحرفيّ. امّا الاستراتيجية الأكثر تداولا إن لم تكن الوحيدة فتقوم على اساس انّ حدث التلفّظ يظلّ ناقصا[1] نقصا ظاهرا، إن اخذناه بشكل حرفيّ.

في المقام الثاني، يجب ان يكون ثمّة مبادئ مشتركة تجمع اللفظ ص (كأن تتعلّق بمعناه وبشروط صحّته او دلالته الصريحة إن كانت له دلالة صريحة) مع مجموعة القِيَم الممكنة لـ ر. وجوهر الإشكال [...] هو تنسيق هذه المبادئ. ولقد حاولتُ ان اعرضَ كثيرا منها، ولكنني متأكّد انّه يوجد غيرها.

ثالثا، يجب ان يكون ثمّة إستراتيجيات مشتركة تسمح للمتكلّم والسامع ان ينطلقا من معرفتهما باللفظ س [...]، لحصر مجال قِيَم ر الممكنة، في قيمة ر الحقيقية. والمبدأ الأساسيّ لهذه المرحلة انّ قِيَم ر الممكنة وحدها والمحدّدة لخصائص س الممكنة، يمكن ان تكون قِيَم ر الحقيقية." (المعنى والعبارة، ص-ص160-161).

---

(1) اي لا يتوفّر على شروط النجاح التي تجعله قولا مقبولا. ولا يمكن له حتى ان يُعدّ إخبارا "حَرْفيًا".

إنّ المبادئ المشتركة التي يطرحها سورل لربط ص بر هي اساسا:

1. يجب ان تكون ر خصيصة بارزة دائمة لص، نحو "جون عملاق".
2. يجب ان تكون ر خصيصة عرَضية لص نحو "جون خنزير".
3. يمكن للمخاطبين الاّ يصدّقوا انّ ر له الخصيصة الموصولة بص، مثلما هو الأمر في القول "جون دبّ له تلحسه امّه جيّدا".
4. لا يوجد خلط بين مواضيع ص ومواضيع ر، نحو القول "صوفيا مُثلّجة".
5. المواضيع ص لا تشبه المواضيع ر ولكنها مربوطة بها من جهة خاصّيّة معيّنة نحو القول "ها إنك بورجوازيّ".
6. توجد حالات تكون فيها ص ور ذاتيْ معنى واحد او متماثل، ولكن حيثما لا نقول ص عن س في العادة، كما في القول "عيون غسلتها الدموع الغزيرة"[1].

وتتعلّق المبادئ السابع والثامن والتاسع بوضع المبادئ الستة المذكورة أعلاه، حيّز التطبيق، تحديدا كما في حالة جمل اكثر تعقيدا (المسمّاة "علائقية"، نحو "الْتَهَمَ جون كتابه")، وتتعلق تلك المبادئ الثلاثة ايضا باختراع الاستعارات اختراعا تلقائيا. اخيرا يعتبر سورل انّ هذه المبادئ صالحة للمجاز المرسل وصالحة للكناية ايضا[2]، إذ يُعتبر هذان الوجهان البيانيان

---

(1) غسلت، بمعنى التنقية ولا تُطلق في العادة على العين بل على الثياب. [المترجم]

(2) المجاز المرسل والكناية، في مقابل المصطلح البلاغي الفرنسيّ (métonymie). [المترجم]

حالتيْن خاصتّين من الحالات الاستعارية[1]، على نحو ما يعلنه إرفنغ غوفمان بدوره:

" من المُسلّم به انّ الاقوال تفترض لا فقط نصّا[2] سابقا واشياء متوافرة في المحيط "المباشر" ومعارف واردةً ولكن تفترض ايضا معايير سلوك" (طُرُق الكلام، ص238) .

---

(1) يتّضح ههنا انّ المؤلف لا يستعمل الاستعارة في معناها الفنّيّ الضيّق. [المترجم]

(2) نصّ هنا مستعمل في معنى واسع هو معنى "الخطاب" ولا سيما الخطاب الشفويّ.

مقاربات تحليل الخطاب

المحضن النظري والمربض الحلالي

لم يكن لفظ الخطاب متّصلا في الأصل باللّغة اتّصالا مباشرا: إذ اللّفظ (discours) الفرنسي مشتقّ من الأصل اللاّتيني (discurrere) بمعنى «الجري هنا وهناك». وعندما بدأت لفظة ديسكورسيس (discursus) . عند نهاية الحقبة اللاّتينيّة . تأخذ معنى الخطاب، فقد كان معناها في البداية طريقا محفوفا بالشكوك للمحادثة والمناقشة قبل ان تُحيل اللّفظة على تشكيل منطوق او مكتوب للفكر، وهكذا اصبحت البلاغات الإغريقيّة للّوغس «logos» ومثلها البلاغات اللاّتينيّة للخطابة«oratio»، اصبحت بالنّسبة إلينا بلاغات للخطاب، لأقسام الكلام (الفعل، الفاعل، إلخ.) ولترتيب الخطاب (ديباجة، قضيّة، سرد، إلخ.) ولأجناسه (برهاني، مشاوريّ، قضائيّ...) . إنّ تاريخ اللّفظ (لفظ الخطاب) وتاريخ استعمالاته، يوازيان تاريخ الفكر، وهكذا ففي القرن السّابع عشر . الذي اصبح فيما بعد قرن شفافيّة اللّغة والفكر في العرض . امكن لديكارت ان يكتب«خطابًا» في المنهج، بمعنى ذلك«المسار» المنظّر والذي ما يزال النعت (discursif) في الفرنسيّة مُحافظا على دلالته ذاتها. ومع ذلك، ليس الخطاب في البلاغة وسيلة تعبير عن الفكر فحسب، بل هو قبل ذلك جهة مستقلّة، إنّه «تيّار» من باثّ إلى سامع او قارئ، وإنّه عمل يستهدف تحقيق اثر

مّا، يشهد بذلك كلّ خطاب منذ خطاب السفسطائيين. وتقترح اللّسانيات تعريفا موسّعا للخطابات باعتبارها مسارات قوليّةً فريدّة قابلة للانفصال(عن غيرها) عن طريقها يجعل المتكلّمُ او الكاتبُ« اللّسانَ» «كلامًا» بالمعنى الذي وضعه دي سوسّير لهاذين اللّفظين (انظر بنفنيست: مسائل اللّسانيات العامّة) كما يحلّل . مع اوستين مثلا . مختلف الأعمال (القوليّة واللاّقوليّة واعمال التّأثير بالقول) التي ينجزها الخطاب. ويسلط علم التّحليل النفسي وعلم الاجتماع اليوم الضّوء المناسب على كلّ خطاب لكشف اللاّوعي او الايديولوجيا. ويشكل اعمّ، يُعَدّ الخطاب، في ضلّ عُلويّة المنوال اللّساني موضوع علم ونقد، في مقابل الكلام المُفسَّر او المرسوم بالقداسة، ويصبح«حقل الخطاب» موضوع ابحاث كثيرة راهنةٍ.

الخطاب في معجم اللسانيات

جاء في معجم اللّسانيات (J.Dubois et al. p.150) انّ الخطاب يدلّ على اربعة معانٍ، يمكن إرجاع إثنين منها إلى اختلاف في التسمية. فالمعنى الاوّل يرادف فيه الخطابُ الكلامَ والمعنى الثّاني يرادف فيه الخطابُ القولَ او الملفوظَ.

ويبرز المعجم انّ للخطاب معنيين اخرين احدهما ينتمي إلى البلاغة والآخر وارد في بعض التّوجّهات اللّسانيّة المعاصرة.

ولعلّ ما تشكو منه الإسهامات العربيّة المحدودة في اللسانيات نقلا للمعرفة اللسانية او نقدا لها او إنتاجا وابتكارا، وما اقلّ ذلك، لعلّ ما تشكوه ليس خصيصة عربيّة ولا سمة محليّة، بل هو من مميّزات العلوم الإنسانيّة، ولعلّ ما ينكره 'معجم اللسانيات' المشار إليه اعلاه من كون مصطلح الخطاب

(discours) يلتبس بالقول او الملفوظ (énoncé) فيكون هو إيّاه، بمعنى انّنا نعرّفه في هذا الاعتبار كما يلي:

«الخطاب وحدة مساوية للجملة او هي اكبر منها وتتشكّل هذه الوحدة من متتالية تكوّن رسالةً (message) ذات بداية ونهاية» ولعلّنا نكاد نجزم بمطابقة عبارة سيبوية في حدّ الكلام («الجملة) للحدّ السّابق إذ يقول صاحب الكتاب:

غير انّ كلمة خطاب تعني في البلاغة «متتاليةً من التمشّيات الخَطابيّة التي يُقصد بها الإقناع او إثارة العواطف، وهي تمشيات تنتظمها قواعد دقيقة. نميّز بين الجنس البرهاني (عتاب او مدح) والجنس المشاوري (نصيحة او نهي) والجنس القضائيّ (دفاع او اتّهام) . ويتركّب الخطاب الخَطابي من ستّة اجزاء لا تدخل جميعها بالضّرورة في خطاب: المقدّمة وطرح الموضوع وسرد الوقائع وعرض الحجج (وسائل الإثبات) ودحض الاعتراضات والنّتيجة التي تقنع المتقبّل وتُثيره. وترتبط الخطابات ايضا بالأطر والظّروف التي قيلت فيها: الخطبة المنبريّة (الدّينيّة) وخطاب رجُل القانون (مرافعة، اتّهام) والخطاب الاكاديمي (تخليد الذكرى) ».

ويعني الخطاب في التّصوّر اللساني المعاصر له كلُّ قول اكبر من الجملة منظورًا إليه من زاوية نظر قواعد تضمين[إدراج] متواليات من الجُمل.

ولم يكن للفظ الخطاب ان يدلّ قبل تحليل الخطاب إلاّ على مرادف القول من زاوية نظر لسانيّة. إنّ التقابل بين القول والخطاب يشير ببساطة إلى التّقابل بين ما هو لساني وما هو غير لساني. فاللسانيات تشتغل على الملفوظات التي تُوضَع للتحليل مجتمعةً في مدوّنة، وامّا قواعد الخطاب، اي دراسة المسار الخطابي الذي يعلّل ترابط متواليات الجمل، فكانت تُلحق بمناويل اخرى، وخصوصا بكلّ منظور يأخذ المتكلّمَ بعين الاعتبار.

ورد في كتاب دومينيك مانغنو:«الكلمات المفاتيح في تحليل الخطاب» الصادر عن دار سوي seuil سنة 1996، بالصفحة 28 انّ الخطاب نو دلالة عامّة باعتباره نشاط فواعل واقعين في سياقات معيّنة. ومثلما يفترض الخطاب تمفصل اللغة وفق معايير غير لسانية، فإنّه لا يكون موضوع مقاربة لسانيّة صرفة.

ويدخل الخطاب في سلسلة من المقابلات يتّخذ ضمنها دلالات ادقّ، من ذلك خصوصا:

- ثنائية الخطاب/الجملة: إذ يمثّل الخطاب وحدة لسانية تتشكّل من تتابع لجملٍ. وبهذا المعنى تحدّث هاريس (1952) (Harris) عن «تحليل الخطاب» وتكلّم بعضهم عن«نحو الخطاب». ونفضّل اليوم الحديث عن النّص وعن اللسانيات النصيّة. [نفهم ضمنيًا انّ الخطاب يطابق النّص في الدلالة، إذا تابعنا المعنى السالف الذكر]
- ثنائية الخطاب/القول (énoncé) : فضلا عن سمته باعتباره وحدة لسانية (=قولا) فإنّ الخطاب يُشكّل وحْدة تواصل تنتظمّ إلى شروط إنتاج محدّدة اي إنّه ينتمي إلى نمط قولي محدّد: حوار تلفزي، مقال صحفي، رواية، إلخ. من هذا المنظور يُحيل القول والخطاب على وجهتيْ نظر مختلفتين:«إنّ نظرة تُلقى على نصّ من جهة هيكلته "في اللسان" تجعل منه قولا، امّا دراسة شروط هذا النّص دراسةً لسانيّةً، فتجعل منه خطابا» (غسبن، 1970، ص10) (Guespin) .
- ثنائية الخطاب/اللسان (langue) :

ا. يتقابل اللسان مُعرّفا بوصفه نظامَ قيمٍ افتراضيةٍ مع الخطاب، وذلك في استعمال اللسان في سياق مخصوص، وهو استعمال يحصر هذه القيم وينشئ اخرى في الوقت ذاته. هذا التمييز يُستعمل بكثافة في

المعجم، إذ يتّصل الإحداث المعجميّ (néologie lexicale) بالخطاب بشكل خاصّ.

ب. يتقابل اللسان مُعرَّفا بوصفه نظاما يتقاسمه أفراد مجموعة لسانية، مع الخطاب باعتباره(أي الخطاب) استعمالا محصورًا لهذا النظام. ويمكن أن يتعلّق الأمر ب:

- تموقع في حَقل خطابي («الخطاب الشيوعي»،«الخطاب السوريالي»...)،
- نوع من الخطاب («خطاب صحفي»، «خطاب إداري»، «خطاب روائي»، «خطاب تدريس في الفصل»...)،
- إنتاجات صنف من المتكلّمين («خطاب المرَضات»، «خطاب الأمّهات»...).
- وظيفة لغوية («الخطاب السجالي»،«الخطاب التوصيفي» (prescriptif) ...) .

غالبا ما يقع انزلاق من نظام القواعد إلى المدوّنة: يعني "الخطاب الاشتراكي" القواعد التي تسم موقفا تلفّظيا بكونه اشتراكيا كما يعني مجموعة الملفوظات المحمولة بالفعل انطلاقا من هذا الموقف أيضا. هكذا يقول فوكو (Foucault) : «نُسمّي خطابًا مجموعةَ الأقوال التي تنضوي تحت تشكيل خطابي واحد» (أركيولوجيا المعرفة، باريس، غاليمار، 1969، ص153).

- ثنائية الخطاب/النصّ: يُعتبر الخطاب تأليفا بين النصّ وسياقه.
- ثنائية الخطاب/الخبر (récit ou histoire) .

علاقة اللسانيات بالرياضيات
رهانات أم عقبات؟

ملخص

يتطرق هذا البحث إلى تبيّن بعض مسائل إدخال المبادئ والمناهج الرياضية في العلوم اللسانية تنظيرا وتطبيقا، وما تقوم عليه عمليات الإدخال من رهانات وما تكتنف اشتغالها من عقبات. إذ من الجليّ احتياج اللسانيات إلى اكتساب الموضوعية والصرامة العلمية المشهود بهما للرياضيات، منذ القديم، وقد ازداد هذا الاعتقاد حديثا بظهور علوم الحاسوب وما فتحته من مسالك لتشبيك العلوم المعرفية عبر الترييض.

Abstract

This paper deals with some problems of using mathematical principles and methods in studying sciences of language: in theoretical and practical processes. This uses have their bets and difficulties. It is very clear that linguistics needs the objectivity and the rigor of mathematics, from early moments in the history of sciences. This belief is widened recently by emergence of computational sciences, and what it open of ways to connect cognitive sciences by using mathematization.

تصدير:

1. اللسانياتُ جسرٌ يربط بين الرياضيات والإنسانيات.

ج. هادامار (G. Hadamard)

2. التعبيرُ البسيطُ إمّا أن يكون جبريًا أو ألاّ يكون.

فردينان دي سوسير (Ferdinand De Saussure)

3. الرياضيات هي الاستعمال الأمثل للّغة.

ل. بلومفيلد (L. Bloomfield)

لم يخْلُ علم من العلوم من صلة مّا بالرياضيات. ولعلّ مجرّد الحديث عن الصلة بالرياضيات يُعدّ أمرا مُتجاوَزًا، في ظلّ التلاقح الذي تشهده وتقوم عليه العلوم المعرفية.

ولعلّ النموذج الإرشادي (paradigme) الذي تسير على هديه العلومُ[1]، منذ بدايات العصر الحديث يجعلها تأخذ من الرياضيات ما به تُقوّي استدلالاتها وتُحكم تناسُق بُناها، حتى تبلغ من العقلانية والعلمية مبلغًا يجعلها لا تغادر "الطريق الملَكية" للعلم.

ولقد ظلّت اللسانيات (linguistics) لمدّة طويلة علم ملاحظة، حيث تُستحصل النتائجُ بالاستقراء والتعميم، عبر مقارنة مختلف فترات تطوّر لسان

---

(1) هذا الرأي يورده صاحب فصل أسس الرياضيات في الموسوعة البريطانية حيث يرى أنّ الرياضيات هي المنوال الذي تحتذيه المعرفة العقلانية في الغرب. انظر:

Joachim Lambek. "mathematics, foundations of." Encyclopaedia Britannica. 2007.

مّا او مقارنة ظواهر تنتمي لالسنة مختلفة[1]. ثمّ ارتـنى بعض اللسانيين، مثل بلومفيلـد (Bloomfield) [2] وهيالمـسلاف (Hjelmslev) إمكانيـة دراسـة البنـى اللسانية وضرورتها باستعمال البنى الرياضية[3].

ولعلّـه يحـسُن الانطـلاق – قبـل طـرح موضـوع علاقـة اللـسانيات بالرياضيات – من الإشارة إلى وجود طريقتين متعارضـتين تقليديتين في النظر إلى العلاقة بين اللغة والرياضيات:

- إحداهما ما سمّاها برتراند رسل "النظرة العقلية المتطرّفة إلى اللغة"[4] وهـي نظرة تعتبر اللغة حسابا تسوده الأفكار الواضـحة المتميّزة في كلّ خطواته وتعرض فيه قواعد الحساب بوضـوح وصـرامة وهـذه هـي نظرة الفيلسوف والرياضـي الألماني ليبنتز (1646-1716) (Leibniz). "فاللغة – عند ليبنتز – عبارة عن "مرآة للعقل"، بمعنى أنّ اللغة عظيمة الرقيّ تعكس الإنجازات الفكرية لمتكلميها وتعزّزها. وبوصفه ناقدا لغويًا كان اهتمامه منصبا على تحسين اللغة الألمانية حتى تصبح أداة للتفكير الصحيح والدقيق. ومن هنا

---

(1) Solomon Marcus, Aspects mathématiques de la linguistique, UNESCO, Paris, 1966, 23 pages.

(2) انظر التصدير أعلاه، نقلا عن المرجع السابق.

(3) Ibid.

(4) برتراند رسل، حكمة الغرب: الفلسفة الحديثة والمعاصرة، ترجمة د. فؤاد زكريا، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد 365، يوليو، 2009، ط2، ص91.

تمثل وَلَعُه بالتشبيه في تشبيه الفيشات كوسيلة للحساب بالكلمات كوسيلة للتفكير"[1].

- الأخرى هي نظرة إلى اللغات الطبيعية تبعا للطريقة التي نمت بها بوصفها وسائل للتواصل، مع رفض ايّ محاولة لوضع صيغة صورية لها على اساس انها تشويه لها.[2] ويقول بهذا الراي الفيلسوف الايطالي فيكو (Vico) (1668-1744) .

ولعلّه من اليسير تبيُّن انّ هاتين النظرتين المتعارضتين تعكسان تيّارين فلسفيين احدهما مُوغِلٌ في العقلانية وإعمال الرياضيات والمنطق، والآخر مُكتفٍ باللغة وبمنطقها والياتها وانحائها بمعزل عن التقنينات الخارجية. ومكمن التطرّف في كلا الموقفين ناجمٌ – في تصوّري – عن تجاهل حدود تداخُل اللغة والرياضيات. فالراي العقلانيّ ينفي بشكل مّا خصوصية النسق اللسانيّ، امّا الراي المكتفي باللغة فيُهمل الابعاد الرياضية الاكيدة للغة وخصائصها واستعمالاتها.

لذا سنسعى في هذه المحاولة إلى التمييز بين:

- التربيض العامّ: اي البُعد الرياضي الذي يدخل في كلّ سلوك لغويّ، سواء اادركنا ذلك ام لم ندركه.
- والتربيض الخاصّ: وهو اعتماد المعادلات والصيغ الرياضية في توصيف النظام اللغوي وتقعيده.

---

(1) فلوريان كولماس. اللغة والاقتصاد. ترجمة د. احمد عوض. مراجعة عبد السلام رضوان. الكويت. سلسلة عالم المعرفة. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. العدد 263. نوفمبر .2000. صص 9-10.

(2) المرجع نفسه. ص92.

ولعلّ محاولةً كهذه تذكّرنا بما نجده في المنطق من تمييز بين المنطق الصوري والمنطق الطبيعيّ.

وقبل الشروع في دراسة هذه التمييزات، يحسُن الوقوف على تطوّر النظرة إلى تاريخ اللغة وإلى مكانة الصور والمجازات. ففي تقديري، يُعدّ هذا الأمر مدخلا أساسيا لإعادة تقييم تاريخ الدرس اللغوي القديم والحديث.

فقد أتى حينٌ من الدهر رأى فيه القائلون بالوضعية (positivisme) أنّ الفكر البشري ينقسم إلى أطوار متعاقبة. فقد كان "الفكر البدائيّ يستخدم صورا ومجازات، على حين أنّ الفكر التصوّريّ (conceptual) هو آخر مرحلة في الارتقاء والتعقيد"[1]. وقد بيّنت دراسات لايكوف (Lakoff) وجونسن (Johnson) أنّ الإنسان يحيا بالاستعارات[2]، بل إنّ الاستعارة ماثلةٌ في خطابات الصحيح من العلوم وصُلبها، مُثُولَها في خطابات الحياة اليومية، وإن اختلفت الطرائق والسياقات والمستويات، بلا شكّ. وإذا كنا نظنّ أننا لا نحتاج إلى إقامة الدليل على هذه الرؤية، فإنّ ذلك لا يعني، بالضرورة تقليص حضور جانب التجريد من مقاربة المدارس اللسانية للظاهرة اللغوية.

---

(1) المرجع نفسه، ص90.

(2) جورج لايكوف ومارك جونسن، الاستعارات التي نحيا بها، ترجمة عبد المجيد جحفة، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، 1996، ط1. وقبلهما تحدّث بول ريكور عن "الاستعارة الحيّة". انظر:

Paul Ricoeur, La métaphore vive, Paris, Éditions du Seuil, 1975.

هذا المدخل لدراسة حدود العلاقة بين اللسانيات والرياضيات، او بالاحرى لحدود تدخّل الرياضيات في العلم اللساني، ممّا نسمّيه ترييضا (mathématisation) يُحوِجنا إلى مُدارسة مقارنة لموضوع العلوم الرياضية وموضوع العلوم اللسانية، من جهة، وإلى تبيُّن منهج كلّ منهما من جهة اخرى، قصدْ الوصول إلى معرفة وجوه تدخّل منوالات الرياضيات في منوالات اللسانيات وفروعها في فروعها.

بادئ ذي بدء، نشير إلى انّ المقارنة لن تكون شاملة ولا مستغرِقة، بل ستقتصر على بعض العناصر التي تخدم هدفنا من هذا البحث.

إذا كانت الرياضيات بما هي "علم الامتداد المتصل والمنفصل"[1] تشمل علوما عديدة كالهندسة والجبر والأرتمطيقا ونظام القيس، ...، فإنّ اللسانيات هي الأخرى تضمّ علوما عديدة كالنحو والصرف والصوتيات (phonetics) والصوتمية (علم وظائف الأصوات) (phonology) والمعجمية والدلالة والاسلوبية، ...

ولمّا كانت اللسانيات علما وصفيا / تفسيريا، فإنها تُعنى بالأساس بالمدوّنة اللغوية الملفوظة او المكتوبة، ومن ثمّة فهي تنزع إلى الاستقراء.

امّا الرياضيات، فتعتمد بالأساس على الاستنباط، لأنها لا تتوفّر على "مدوّنة" بالمعنى الكلاسيكيّ للعبارة. ومن ثمّة فهي تقوم اساسا على التجريد.

إنّ هذه المقارنة المبتسَرة التي تُوقفنا على توافقات عامّة جدّا بين الرياضيات واللسانيات، لا تزيد – في الواقع – عن ايّ توافقات ممكنة بين

---

(1) Alfred North Whitehead,"mathematics, philosophy of." Encyclopaedia Britannica 2007.

ايَّ علمْين، لا تُغنينا عن ملاحظة وجود ازمة مفتعَلة بين اللسانيات النظرية واللسانيات الحاسوبية. هذه الأخيرة – التي يُفترض انها مَعبَر اللسانيات إلى الرياضيات – يرى القائمون عليها انْ لا غَناء من اللسانيات النظرية[1]، وكأنّها مرحلة من العلم اللساني تمّ تجاوُزها، ويجب ان تحلّ محلّها التطبيقات الحاسوبية الرياضية، في معالجة اللغة معالجةً اليةً.

هذا الضرب من التصوُّر يُوصلنا في حقيقة الأمر إلى إشكالية عويصة تتمثّل في تدخّل التكنولوجيا في العلم تدخّلا يبدا مفيدا وناجعا وينتهي بإلغاء العلم او بتقليص نفوذه وجعله مجرّد مدخل تاريخيّ اعطى مبادئ مفيدة، ثمّ ارتكن إلى الظلّ لتعمل التكنولوجيا عملها في إيجاد التطبيقات والمعالجات الصورية وتفريعاتها.

إنّ هذه الواقعة تنمّ عن محاولة تغييب البُعد النظريّ لعدم تدخّله المباشر في توجيه البحث ولعدم امتلاكه الأدوات الإجرائية التي تمكّن من دفعه قُدُمًا نحو تحقيق كشوفات ذات بالٍ في سياق تطوّر العلم.

وبهذا تبدو العلوم المعرفية مُنساقةً إلى نموذج إرشادي رياضي-حاسوبيّ، يجعل اللسانيات علما مُساعدا، او بعبارة نستعيرها من التراث الأصولي: "علمًا وسيلةً".

هذه الوضعية تحتّم مراجعة ضغط المركزية الرياضية كي تسمح للّسانيات النظرية باسترجاع قدر من المشاركة في تحديد عناصر الإفادة في المعالجات الحاسوبية للّغة. هذا فضلا – بطبيعة الحال – عن الحاجة الملحّة،

---

(1) انظر قول جاكندوف: "وقد قلت إنّ اللسانيين الحاسوبيين يمزحون قائلين إنهم كلما سمعوا مشتغلا باللسانيات النظرية، فإنّ برامجهم تصبح اقلّ نجاعةً." راي جاكندوف. الدلالة مشروعا ذهنيا. ترجمة محمد غاليم. ضمن دلالة اللغة وتصميمها. الدار البيضاء. دار توبقال للنشر. 2007. ص11.

في صُلب اللسانيات، إلى مراجعة مدارسها وتيّاراتها المتصارعة والمتناقضة... لا ليُصار إلى تصوّر موحّد، فهذا الأمر مستبعد لأسباب عديدة، منها طبيعة العلم اللساني ذاته، ولكن لكيلا تبقى المدارس اللسانية قارّات معزولةً او مساقات لا تربط بينها سوى روابطُ هشّةٌ.

التربيض، المفهوم والإجراء

يُشار إلى انّ التربيض ظهر مفهوما وإجراء بوضوح في الفلسفة الغربية انطلاقا من ديكارت في القرن السابع عشر، حيث وضع مبادئ تسير عليها الفلسفة، وهي مبادئ مُستقاة من المنهج الرياضيّ:

1. لا تصدّق إلا القضايا البديهية.
2. يُقسّم المشكل إلى اجزاء.
3. يتمّ العمل بنظام من البسيط إلى المعقّد.
4. يتمّ وضع ترقيم ومراجعة عامّة وشاملة.

فعندما يقارب الفيلسوف مباحثه وفق هذا المنهج، فإنّه يستعمل حدودا واكسيومات[1] وقوانين ومبرهنات مستنتَجة. وهذا يُثمر معاني مكتنزة

---

(1) الاكسيوم (axiom): في المنطق، هو المبدا (القانون، الحكمة) الاوّل الذي لا يقبل البرهنة، ويُقبل قبولا عامّا لكونه بديهيّا. نحو انه "لا شيء يمكن ان يوجد والا يوجد، في الوقت نفسه، في الترتيب نفسه". وفي العصر الحديث، يستعمل الرياضيون كلمتي مصادرة (postulate) واكسيوم بمعنىً. ويشترط بعضهم ان يقتصر لفظ اكسيوم على اكسيومات المنطق، وان تتعلق المصادرة بالفرضيات او المبادئ الأولى ضمن مبادئ المنطق، المُسمّى منطقا رياضيّا. نقلا عن "axiom." from Encyclopædia Britannica. 2007)) بتصرّف.

واستدلالات صحيحة وطريقة نسقية لاكتشاف العلاقات وربطها.

ويزداد الأمر اهمّية عندما نضع في الحسبان انّ "التريض" – على النحو الذي نراه عند توماس كون (Thomas Kuhn)[1] – هو الضامن لعلميّة البحث، فلا يستطيع اختصاصيّ مّا ان يبلغ مبلغَ العلميةِ المعتدُّ به إلا إذا اعتمد قدْرًا مّا من التريض. إنّ التريض هو اصل الظواهر التي تهدف إلى تقوية الاستقلال العلميّ، ومن ثمَّ إلى تشريع نشاطات العلم، وتعزيز وجاهته الاجتماعية، وذلك بتصويبه نحو مبدإ الموضوعية.

ولا يمكن ان نعدّ احتياج اللسانيّ إلى الرياضيات اليوم من قبيل احتياج المزارع او التاجر إلى الحساب او القاضي الشرعي لمعرفة انصباء الورثة في الميراث، على سبيل المثال. ولئن كان كلّ هؤلاء (اللسانيّ والمزارع والتاجر والقاضي) يحتاجون إلى تطبيقات رياضية لا إلى إبستيمولوجيا الرياضيات او إلى تاريخها، فإنّ اللسانيّ لا يكتفي بالبُعد النفعيّ للرياضيات، خصوصا وانّ من الباحث اللسانية ما هو ذو بُعد تجريديّ، فلذلك يختصّ اللسانيّ بمزيد اقتراب من المنهج الرياضيّ، خصوصا وانّ المنوالات الرياضية يمكن ان تفيد في استنباط قوانين لسانية. ويطرح بعض الباحثين[2]، امام تعدد المدارس اللسانية، وغياب المفاهيم المُجمَع عليها من قبل جميع اللسانيين، فكرةَ اولوية حصول تريض جزئيّ، يشمل بعض

---

(1) صاحب كتاب "بنية الثورات العلمية" الشهير. وقد تُرجم إلى العربية اكثر من مرّة: منها ترجمة علي نعمة، دار الحداثة، بيروت، 1986م وترجمة شوقي جلال، عالم المعرفة، الكويت.

(2) Rapport sur les applications des mathématiques aux sciences de l'homme, aux sciences de la société et à la linguistique, mathématiques et sciences humaines, 22e année, n°86, 1984.

"المناطق المفهومية" (régions conceptuelles) حيث يتمّ ترييضها محليًا، أمَلاً في انبثاق عمليات وبنى ثابتة عن تنوّع الملاحظات المباشرة (immédiates) (بالمعنى الإبستيمولوجي للعبارة) .

ولعلّ الاختلاف بين المدارس اللسانية هو الذي جعل امر الترييض امرا مختلَفا فيه هو الآخر. فعلى سبيل المثال، نجد اللساني الأمريكي هاريس (Harris) من ابرز اللسانيين في القرن العشرين، قد نشر مؤلفا ضخما سنة 1982 عنوانه "نحوٌ للإنجليزية مؤسَّس على مبادئ رياضية"، عرض في قسمه الأول وضْع المنهجية الهاريسية، وعالج في الأقسام التالية بالتفصيل حال اللسان الإنجليزي. فبعض اللسانيين لا يُسلّمون لهاريس بانه صاحب نظرية، فما اعماله عندهم سوى تجميع لوقائع اختبارية ذات قيمة وصفية، لا ترقى بأيّ حال من الأحوال لأن تكون لها قيمة تفسيرية.

نشير ههنا إلى وجود قاعدة مهمّة اوردها بعض الباحثين[1] تتمثل في انّ الشكلنة لا تتمّ بالنسبة إلى اللسان الطبيعيّ، بل بالنسبة إلى نظرية تهتمّ بطبقة من الألسنة، اي بنظام اللغة. وهذه القاعدة تُناقض موقف المنطقيّ الأمريكي مونتاغيو (Montague) (توفّي سنة 1970)، حيث ذهب في مقال له شهير (الإنجليزية لغةً صوريةً English as a Formal Language) إلى انّه لا توجد فوارق جوهرية بين الألسنة الطبيعية كالإنجليزية، وبين اللغات الصناعية للمناطقة: حيث يرى انه من الممكن ان تشتمل نظريةٌ مُوحّدة على كُلّ من علمي التركيب والدلالة لكلّ منهما.

ولعله من المفيد ان نشير ههنا إلى وقوع هذه النظرة التي تبنّاها مونتاغيو واتبعه فيها غيره من اللسانيين والمناطقة على طرفي نقيض مع

---

(1) Ibid.

الاتجاه التوليديّ الذي رعاه تشومسكي – وسنخصّص فقرة خاصّة عن المدرسة التوليدية والرياضيات، ادناه – وذلك على الرغم من عودة تشومسكي إلى ديكارت وإلى مدرسة بور روايال المنطقية، حيث إنها عودة اللسانيّ المعاصر لينطلق من النظر الرياضي – الفلسفي – المنطقيّ لاستخلاص النحو الكلّيّ (Universal Grammar) وهو ضرب من "النحو الخالص" يتكون من أشكال هندسية متكاملة فيما بينها، وقادرة على أن تستجيب لمقتضيات "العقل المحض" الكانطية[1].

اللسانيات البنيوية والترييض

لئن مهّدت اللسانيات البنيوية الطريق لإدخال المناهج الرياضية في اللسانيات، فإنّها قد تطوّرت دون إدخال تلك المناهج في صُلبها. وبعض محاولات إضفاء الطابع الأكسيومي (axiomatisation)، على النحو الذي قام به بلومفيلد، أو تقديم بعض المقترحات المهمّة للشكلنة، تبقى بعيدة عن ضرورات الدقّة التي يتطلّبها الوصف الرياضيّ. وتظلّ افكار هيالمسلاف المتعلقة بجبر اللسانيات (algébraisation) في نطاق المشروع، لأنّ علم الجبر غائب عن توصيفاته[2]. ولكنّ كلّ هذه الدراسات مهّدت الطريق شيئا فشيئا لوصل اللسانيات بالرياضيات[3].

---

(1) Ibid.

(2) Solomon Marcus, Aspects mathématiques de la linguistique, UNESCO, Paris, 1966, p.4.

(3) Ibid.

لقد كفّت مهمّة شكلنة التوصيفات اللسانية عن ان تكون مسألةً خاصّةً بالتأمّل النظريّ، بل لقد اضحت مقدّمة ضرورية للسانيات التطبيقية. إنّ معيار الطابع الشكليّ / الصوريّ للوصف اللسانيّ اصبح اليوم موضوعيًا ودقيقا: إنّه يتمثّل في قابليته لأن يكون مفهوما مِن قِبَل الآلة[1]. وبذلك يمكن القول إنّ اللسانيات الرياضية وُلدت في النصف الثاني من القرن العشرين، عندما تطوّر العلوم الحاسوبية. وقد شهد العقد السادس من القرن العشرين حَدَثين في منتهى الأهمّية بالنسبة إلى ترييض اللسانيات: تمثّل احدهما في القيام بخطوة جديدة نحو الثنائية اللسانية، اي التوصيفات الصوتمية القائمة على نظرية السمات التمييزية الثنائية (من قبيل: الجهر والهمس، الشدّة والرخاوة، ...) (ياكبسون Jakobson وفانت Fant وهال Halle وCherry). وتمثّل الحدث الثاني في التطوّر الجديد الذي حصل بظهور اللسانيات الوصفية (هاريسHarris وهوكيت Hockett، إلخ.) . لقد افضت الثنائية اللسانية، التي تطوّرت في الصوتمية (phonology) بالخصوص، إلى الانتفاع بنظرية جبر بول (Boole)، على النحو الذي بيّنه بالفيتش (Belevitch) وبنظرية الكودات (codes) الفرع الجديد من السيبارنيطيقا (cybernétique)، كما بيّن ذلك أبوستال (Apostal) ومندلبروت (Mandelbrot) ومورف (Morf) [2].

إنّ معظم المنوالات الرياضية لدراسة الصواتم (phonèmes) التي ظهرت في السنوات الأخيرة، ترتكز – اعتمادا على تعليمات ياكبسون– اساسا على التوصيفات الثنائية، بجعل السمات التمييزية الثنائية في المستوى الأوّل بوصفها عناصر كود صوتميّ. ومن ناحية اخرى، فإنّ تطوّر اللسانيات الوصفية، عبر الاهتمام المتّجه نحو التوزيع والسياق، يُفسح الطريق امام

---

(1) Ibid.

(2) Ibid.

تطبيقات علم الجبر في اللسانيات. وفي هذا السياق تندرج المنوالات التحليلية للنحو التي دشّنها كولاجينا (Kulagina) وطوّرها دوبروشين (Dobrušin) واوزبنسكي (Uspenskii) وغيرهم.

هذه المناهج لها تاريخ اقدم في اللسانيات غير البنيوية. يتعلق الأمر تحديدا بمناهج حساب الاحتمالات والإحصاء. من ذلك قانون زيبف (Zipf) [1] حيث يكون تواتر كلمة في نصٍ على قدرٍ مّا من الطول مُتناسبا تناسُبا عكسيًا مع رُتبة هذه الكلمة في قائمةٍ تكون فيها كلماتُ ذلك النصّ مرتّبة ترتيبا تنازليًا، من حيث التواتُر"[2].

وقد ظهرت مجموعة من الأعمال في المعجمية الإحصائية والأسلوبية الإحصائية منذ بدايات القرن العشرين. ووُضعت معاجمُ لتواتُر الألفاظ في مُعظم الألسنة المستخدَمة. كما شهدت ستينات القرن الماضي تدخُّلَ مناهج نظرية الإخبار في اللسانيات.

ولا غرابة في ان تشهد المناهج الإحصائية تقدُّما زمنيًا على المناهج البنيوية غير الرقمية. فالظواهر الكمّية التي توفّرها اللسانيات تخضع بيُسرٍ للبحث الإحصائيّ، حتى قبل ان تنتظم بنيويًا، في حين انّ المناهج الرياضية غير الرقمية، المتعلقة بأصناف متنوّعة من البنى (نظام القيس، الطوبولوجيا، المجموعات، الأجسام، المقولات، ...) تتطلّب نُضجًا اكبر من جهة اللسانيات البنيوية، وهو ما بدأ يحصل منذ ستينات القرن العشرين. بقي ثمّة مشكل

---

(1) B. Mandelbrot, Théorie mathématique de la loi d'Estoup-Zipf. Institut de Statistique de l'Université, Paris, 1957.

(2) Solomon Marcus, Aspects mathématiques de la linguistique, UNESCO, Paris, 1966, p.8.

اساسيّ يتمثّل في انّ تأسيس بحوث إحصائية على نتائج تحصّل عليها التحليل البنيوي، هو امرٌ لم يُطرَقْ إليه إلا باحتشام.

المدرسة التوليدية والرياضيات

إذا كانت الأنحاء التوليدية تجد في نحو بور روايال سَلَفًا لسانيًا، فإنّ أصولها الحقيقية تعود إلى تطوّر المنطق الرياضي والآلات الرياضية.

لقد مكّن تطوّر نظرية المجموعات، في القرن التاسع عشر، من تأسيس جميع فروع الرياضيات وإعادة صياغتها تقريبا. ولقد نالت الدراسات المتعلقة باللامتناهي الرياضيّ حظًا كبيرا. بيد انّ هذه الدراسات أدّت إلى حصول مفارقات وتناقضات.

إنّ صيغا في التفكير عادية من قبيل: (إذا كان إ صحيحا، فإنّ لا إ خاطئ)، وهي صيغة اكتسبها الفكر البشريّ بعد خبرة آلاف السنين، ذات قيمة إجرائية في مجموعات محدودة، فإنها – مع ذلك – تؤدّي إلى حصول تناقضات، ما إن يتمُّ اعتمادُها في مجموعات لانهائية.

على مدى قرون عديدة، تمثّلت الدقّة الرياضية المتناهية في المنهج الأكسيومي الاستنباطي. وقصدَ التخلّص من الصعوبات المترتّبة على تطوّر نظرية المجموعات، أدخل هيلبار (Hilbert) ودرس بين سنتي 1917 و1924 مفهوم النظام الصوريّ (système formel) . وتُعدّ نظرية الأنظمة الصورية أصلَ الأنحاء التوليدية التي وضعها ودرسها تشومسكي[1].

---

(1) Ibid. p.10.

لقد قام تشومسكي بلا منازع بدور اساسي في مشروع الترييض في اللسانيات. إنّ كلّ ترييض يمرّ عبر لغة رمزية، ولكن استعمال لغة رمزية ليس مرهونا البتة بالترييض: يجب ان تتمّ حسابات للرموز[1].

يشير تشومسكي إلى انّ منوالات البنية اللسانية المبنية بدقة، يمكن ان تقوم بدور مهمّ، إيجابيّ وسلبيّ معا، في مسار الاكتشاف نفسه.

ويجب أن تتوفر في المنوالات المبنية بدقة ثلاث خصائص: قابلية الدحض (falsifiabilité) والتوقّع (prédictivité) والموضوعية (objectivité) . بدايةً، لا يمكن دحض قضايا تُلفظ بطريقة غير دقيقة. وحدها القضايا المَصُوغة بدقّة، التي يمكن ان نستخلص منها استنتاجات دون ان يتطرق لها الاحتمال، هي التي يمكن دحضُها.

والواقع انّ المعرفة العلمية لا تتقدم إلا بالدحض المتتالي للفرضيات المقدُمة، على نحو ما يرى ذلك كارل بوبر (Popper) .

ثمّ إنّ العلم يجب ان يجد حلولا تنطبق على وقائع لم يتمّ فحصُها، او على مشاكلَ لم تتمّ مواجهتُها؛ وهذا هو طابعُه التوقُعيّ. وهذا يُوجب ايضا ان تُستخلَص النتائجُ من القضايا الملفوظة، دون ان يتطرّق لها الاحتمالُ.

ويبدو انّه من الأساسيّ ان يكون المنوال موضوعيًا، وحسب بوبر، فإنّ موضوعية الأقوال العلمية تكمن في إمكان إخضاعها لاختبارات بقطْع النظر عمّن يقوم بذلك. بعبارة اخرى، يجب ان تؤدّي الفرضيات نفسها في المنوال نفسه إلى النتائج نفسها، بقطع النظر عمّن يقوم بها، تماما مثلما انّ الحسابات يجب ان تؤدّي إلى النتائج نفسها، مهما كان القائم بها. انْ نقول إنّ منوالا مّا مبنيّ بدقة، لا يمكن ان يكون سوى منوال رياضيّ. بحيث إنه

---

(1) Marcel Cori, La mathématisation des formalismes syntaxiques, Linx 48, 2003, p-p.13-28.

يمكننا ان ننتقل من صاحب نظريّة مُريَّضة (mathématisée) لاختبارها تجريبيا، او لمحاولة تطبيقها على هذه الواقعة أو تلك. ويمكننا ان نمرّر النظرية لأشخاص اخرين، بحيث تصبح تلك النظرية وديعةً شرعيةً عندهم، مثلما كانت عند اصحابها الأصليين. فالنظريّة لم تعُد مرتبطة بالمُنظّر[1].

وهذا لا يعني طبعا ان النمذجة (modélisation) (الرياضية) تحتكر كلَّ ممارسةٍ علميةٍ، ولا انّ اللسانيات قبل تشومسكي لك تكن علميّة. نشير بسرعة إلى انّ التمشّي العلميّ يقوم على الملاحظة والوصف والتنظيم والتعميم والنمذجة. فالملاحظة هي المرحلة الأولى للتمشي العلميّ، في حين انّ النمذجة تمثّل المرحلة الأخيرة، وهي مرحلة خاصّة بالترييض[2].

المعالجة الآلية للغة

يمكن تعريف المعالجة الآلية للّغة (TAL) [3] ببساطة بأنها عبارةٌ عن مناهجَ وبرامجَ تتخذ الإنتاجات اللغوية معطيات، حيث تأخذ تلك المناهج والبرامج خصوصيات الألسنة البشرية بعيْن الاعتبار[4]. والأكيد انّه ليس من قبيل الصدفة ان يتصاحب ترييض اللسانيات مع تطوّر المعالجة الآلية للّغة. إننا عندما نُحوْسِبُ مشكلا فذلك يعني انه صريح، دقيق وموضوعيّ: فالقواعد التي نعتمدها يجب أن تخضع لمسار اليّ: إذ يعسر علينا ان نبقى في حيّز الغموض والعموميات. ليست الآلة بقادرة على تأويل ايّ معلومات نُدخلها لها.

(1) Ibid.

(2) Ibid.

(3) Traitement Automatique du Language.

(4) Ibid.

ومن ثمّة، فالمُعوّل إمّا على بناء انظمة وصف دقيقة او على تجويد الانظمة القائمة بطريقة تجعلها ملائمة لمعالجة خصائص اللغة الطبيعية معالجةً آليةً. ومنذ بدايات المعالجة الآلية للّغة، نهض منطقان متعارضان بالبحث في هذا المجال: امّا احدهما فهو المنطق "العلميّ" الذي يرتكز على البحوث اللسانية ويعمل على التقدّم بها، وامّا الآخر فهو منطق يمكن وسْمُه بأنه "نفعيّ"، حيث يقوم على مبدإ أنّ "الغاية تبرّر الوسيلة". ويتجلى المنطق النفعي في أعمال يقال إنها معالجةٌ آليةٌ للّغةِ صُلبةٌ تتوسّل بأدوات تجلية (désambiguïsation) تقوم على الإحصاءات والاحتمالات او التحاليل الجزئية التي تهدف إلى تحديد بعض المكوّنات في الجُمل، فحسب، مع تجاهُل الالتباسات. إنّ مثل هذه الأعمال، وعلى الرغم من استدعائها أدوات رياضيةً، فإنها ابعد ما تكون عن تربيض المعارف اللسانية.

وقد بيّن تشومسكي (1957) عدم ملاءمة الآلية الأوتوماتيكية المستعملة بكثرة في انساق التحليل الصُلب لأن تكون منوالا للتركيب. ومهما يكن من امر، فإنّ الاعمال الصُلبة لمعالجة اللغةِ معالجةً آليةً لا تستهدف بناء تعميمات حول الألسنة.

ويحتل التركيب (syntax) مكانة مركزية في المعالجة الآلية للّغة. ذلك اننا إذا فكّكنا المعالجات الآلية إلى سلسلة من المعالجات الفرعية، فإنّ التركيب يمثل ممرًا يكاد يكون ضروريا يقع بين المعالجات القبْلية (prétraitement) التي تسمح بالحصول على تقسيمات نظام الكلمة إلى وحدات، وبين المهامّ المخصوصة للتطبيقات المتناوَلة[1].

(1) Ibid.

ونلاحظ، تاريخيا، انّ خوارزمات التحليل التركيبيّ اصبحت، خلال ستّينات القرن العشرين، بعد الفشل الذي مُنيت به الترجمة الآلية، محورَ البحوث في المعالجة الآلية. وهذا الأمر نو علاقة مع الأهمية التي يحظى بها ترييض التركيب؛ وهي اهمية لا تنبع من اعمال تشومسكي، فحسب، بل وكذلك من البحوث التي تطوّرت بمعزل عن برنامج النحو التوليديّ.

منذ نهاية سبعينات القرن العشرين، تبيّن انّ التحقّق المعلوماتيّ يكون افضل، كلما كان الفصل اوضح بين الخوارزمات والبرامج (الإجرائية) وبين تمثيل المعطيات الذي يتمّ بشكل صريح. كما تبيّن انّ قدرا كبيرا من المعارف الإنسانية التي يرتكز عليها الإنجاز، يظهر ضمن المعطيات (ومن ثمّ، فإن قدْرا ادنى منها يظهر في البرامج) [1].

نموذج للترييض في اللسانيات

كلّ مجموعة من الجمل في فـ هي لغة في فـ. هبْ اعتمادا على الترقيم المُعتمَد، تفريعا لل إلى مجموعتين منفصلتين لـ1 ولـ2. جُمَلُ لـ1 هي الفاظ، في حين انّ جُمَل لـ2 هي علاقات. ولْنضعْ جزءا ج من لـ2. كلّ جُملة من ج ستكون مبرهنة.

النظام: ٤= <فـ، لـ1، لـ2، ج> هو نظام صوريّ.

هكذا نلاحظ انّ تحديد نظام صوريّ يعني تحديد لغة ل في فـ، ثمّ تحديد ثلاث لغات فرعية: لـ1 ولـ2 وج لل، بحيث انّ لـ1 لـ2 = ل وج لـ2، وهو ما يبيّن الطابع اللسانيّ للنظام الصوريّ. وليس من قبيل الصدفة، ان تتطلّب

---

(1) Ibid.

الاهتمامات الميتارياضية إبرازَ الرياضيات بوصفها لغةً ذاتَ بنية تذكّر بالطبيعة العميقة لأنماط التفكير الرياضي[1].

هب النظرية العلمية ن، نعرّف تأويلَ ٤ في ن بوصفه توافُقا يجعل لكلّ لفظ من ٤ مفهوما من ن، ولكلّ علاقة لـ ٤ قضيةً (صحيحةً او خاطئةً) لـن، بطريقةٍ تكون فيها كلُّ مُبرهنة لـ ٤ موافقةً لقضية صحيحة في ن. نقول في هذه الحالة إنّ نظرية ن قد تمّت شكْلنتُها (بواسطة النظام ٤) .

وهذا هو مفهومُ الشكلنة الدقيقُ نو الاهمّية الكبرى في اللسانيات اليوم[2].

عادةً ما نعرّفُ مُبرهنات النظام الصوريّ بواسطة مفهومَيْن مساعدَيْن: مفهوم الاكسيوم ومفهوم النصّ البُرهانيّ. هبْ انّ إ جزءٌ من لـ2: كلّ جملة من إ هي اكسيوم. امّا النصّ الاستدلاليّ فهو متوالية (suite) من العلاقات (اي من الجمل التي تنتمي إلى لـ2)، بحيث انّ كلّ علاقة في هذه المتوالية هي إمّا اكسيوم او يمكنها ان تحصل من العلاقات السابقة للمتوالية، باستعمال مجموعة ر من القواعد المحدّدة. فالمُبرهنة إنن هي علاقةٌ يحتويها على الأقلّ نصٌّ برهانيٌّ.

إنّ ما يكوّن المنوال الرياضيّ للانحاء التوليدية هو إدخال المُبرهنات بواسطة الاكسيومات والنصوص البُرهانية. إنّ نحوًا ح للُغةٍ ل هو مجموعةٌ محدودةٌ من القواعد المحدودة تنظّمُ جُمَلَ ل وفقط الجُمل[3].

---

(1) Solomon Marcus, **Aspects mathématiques de la linguistique**, UNESCO, Paris, 1966, p.11.

(2) Ibid.

(3) Ibid.

إنّ نحـوًا ح مُكَوَّنًـا مـن اكـسيومات ومـن قواعـد هـو نظريـةً مكوَّنـةً مـن اكسيومات وإنتاجـات. وإنّ جملةً تُولَّدُ عبر النحـوح هـي مُبرهَنةً، واشـتقاقُ مثلِ تلك الجملة هو نصٌّ برهانيٌّ يحتوي هذه المُبرهنة.

إنّ فكرة النحو التوليديّ تقوم على إمكان توليد عدد لا نهائيّ من الجُمل، انطلاقا من مجموعة محدودة من القواعد. هذه الإمكانيةُ تُفسَّر بوجود وسـائل ذات طـابع تكـراريّ (récursif) في الألـسنة الطبيعيـة، تـسمح بفهْـم جُمَـل قـد تُسمعُ للمرّة الأولى (ولكنها مُنشأة بواسطة وسائل وقع استعمالها من قَبْلُ) .

وثمّة اقسامٌ متنوّعةٌ للانحاء التوليدية: منها النحو ذو العدد المحدود من الحالات، وثمّة النحو المستقلّ عن السياق (context-free) .

كلّ صنف من اصناف النحو التوليديّ يوافق نوعا من الآلات الرياضية. ولعلّ اعمّ الة رياضية هي الة تورينغ (la machine de Turing) . وثمّة تنويعات كثيرة من الانحاء الموافقة للانحاء المستقلة عن السياق: منها الانحـاء المَقُولية والانحاء الإسقاطية.

فالانحاء المقولية التي جاء بها بارهيلال (Bar-Hillel) وغايفمان (Gaifman) وشـامير (Shamir) لهـا اصـول في بحـوث المنطـق الرياضـي المتعلقـة بالانمـاط التركيبيـة في المنـوالات التركيبيـة للوسـم شـبه الارتمطيقـي لبـار هـيلال، وفي حساب الانماط التركيبية للامبك (Lambek) . فقد لاحظ هذا الاخير انّه يمكن في الفيزياء ان يُحكَمَ على صحّة المعادلة عن طريق مقارنة ابعاد طرفي المعادلة. ويتم طرح مشكلة ربط بعض الانماط التركيبية بكلمات لسان طبيعيّ، من قبيل الصحّة النحوية لقضية قابلة للتحقق عبر حساب يُجرى على الانماط التركيبية لألفاظه. تأخذ الانحاء المقولية المظهر التوليدي لهذه القضية. وقد بيّن بارهيلال وغايفمان وشامير توافُق الانحاء المقولية والانحاء المستقلة عن السياق[1].

---

(1) Ibid. p-p.15-16.

ويُدعى النحو إسقاطيا (projective) عندما تكون اللغة التي يولّدها إسقاطية. وتكون اللغة إسقاطية، عندما تكون كلّ جملة إسقاطية.

إنّ معظمَ جُملِ الألسنةِ الطبيعيةِ إسقاطيةٌ. وتُوافِقُ إسقاطيةُ الجملة تواصُل مكوّناتها.

ولعلّنا نحتاج إلى دراسات أعمق للعلاقات القائمة بين المنوالات التحليلية والمنوالات التوليدية للغة. وعلى صعيد آخر، فإنّ الأنحاء التحويلية، التي تقدّم نفسها بوصفها مكمّلةً للأنحاء ذات المكوّن المباشر، ستندمج، بلا شكّ، في أطُرِ الدقّة الرياضية[1].

خاتمة

لقد حاولنا في هذا البحث أن نطرح بعض مسائل ترييض اللسانيات النظرية والتطبيقية. وقد تبيّن لنا أنّ إكساب اللسانيات طابع العلم المرموق المعتدّ به أصبح يحتاج إلى قدر مّا من الترييض، كما وقفنا – وإن باختصار – على تفاوت بين فروع اللسانيات في الأخذ بمناهج الرياضيات ومبادئها، سواء من الناحية الزمنية أو من ناحية درجة الاعتماد على المنوالات الرياضية.

كما وقفنا على تنازُع المدارس اللسانية وما تسبّبه الاختلافات القائمة بينها من غياب منوال عامّ مُنمذج يأخذ بعين الاعتبار الكليّات المتفق عليها، فضلا عن غياب هذه الأخيرة.

---

(1) Ibid. p-p.16-17.

ولعلّ المحاولات العربية في ترييض اللسانيات تبقى محدودة: بل وحتى ما هو موجود منها إمّا انه يكتفي بالنقل عن الدراسات الغربية، او انه يظلّ حبيس تصوّر نفعيّ مباشر لقضية الترييض. وهذا يُحوِجنا طبعا إلى مزيد بذل الجهد لتسجيل محاولات علمية جادّة لترييض اللغة العربية.

قائمة المراجع

العربية:

- جاكندوف، راي، الدلالة مشروعا ذهنيا، ترجمة محمد غاليم، ضمن دلالة اللغة وتصميمها، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، 2007، ط1.
- رسل، برتراند، حكمة الغرب: الفلسفة الحديثة والمعاصرة، ترجمة د. فؤاد زكريا، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد 365، يوليو، 2009، ط2.
- كولماس، فلوريان، اللغة والاقتصاد، ترجمة د. أحمد عوض، مراجعة عبد السلام رضوان، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد 263، نوفمبر،2000.
- لايكوف، جورج وجونسن، مارك، الاستعارات التي نحيا بها، ترجمة عبد المجيد جحفة، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، 1996، ط1.

الأجنبية:

- Cori, Marcel, La mathématisation des formalismes syntaxiques, Linx 48, 2003.
- Encyclopaedia Britannica, 2007.
- Mandelbrot, B., Théorie mathématique de la loi d'Estoup-Zipf, Institut de Statistique de l'Université, Paris, 1957.
- Marcus, Solomon, Aspects mathématiques de la linguistique, UNESCO, Paris, 1966.

- Rapport sur les applications des mathématiques aux sciences de l'homme, aux sciences de la société et à la linguistique, **mathématiques et sciences humaines**, 22e année, n°86, 1984.

- Ricoeur, Paul. La métaphore vive, Paris, Éditions du Seuil, 1975.

الجسد والعقل

أم العقل والجسد!

صدر حديثا ضمن سلسلة كتاب الرياض كتاب مهم عنوانه "العقل والجسد" لمؤلفه الباحث اسعد علي النمر وقد اردنا ان نقدم هذا الكتاب، بطريقة مختلفة. فجعلنا عنوان التقديم ترتيبا معاكسا لعنوان الكتاب. وما ذاك إلا لبيان مسألة مهمة تتمثل في الخلفية الفكرية التي تكمن وراء هذا الاختيار. فإذا كان تقديم العقل، امرا مسلّما به منذ القديم، ولا سيما بالنسبة إلى الرؤى الفلسفية ذات التوجه المثالي، فإنّ منزلة الجسد قد اخذت منعرجا اخر منذ بزوغ عصر الحداثة وما رافقته من رؤى فلسفية حديثة.

صحيح انّ حرف العطف الواو في اللغة العربية لا يدلّ على ترتيب مّا بين المعطوف عليه والمعطوف، ولكن نظنّ انّ الدارس المستند إلى رؤية حديثة يمكنه ان يرفع الضيم عن الجسد الذي اعتُبر قديما محلّ الشر وموطن الخطيئة.

وقد نكرني عنوان كتاب الباحث المتخصص في علم النفس الأستاذ اسعد علي نمر "العقل والجسد" الصادر في جزئه الأول 2008 وعنوانه الفرعيّ "حينما يكون العقل وسيلة فعالة لحياة اقل هما وافضل صحة"، نكرني بعنوان كتاب مارك جونسون "الجسد في العقل"، وهو مقاربة معرفية فلسفية دلالية في

قضايا اللغة والفكر وعلم النفس والنظريات المعرفية، الصادر في 1987. وعنوانه الفرعي مفيد "الأسس الجسدية للمعنى والخيال والتفكير".

يحتاج دارس علم الدلالة اليوم إلى الاطلاع على المناهج الجديدة التي أضحت تهيمن على النظر إلى المباحث الدلالية المعاصرة. ومن هذه المناهج ما يُعرف باللسانيات المعرفية أو العرفانية وقد ظهرت في سياق تطور علم الدلالة في تنويعاته التي لم تبق حبيسة المدرسة التوليدية، بل كونت خطا موازيا لهذه المدرسة ونهض أعلام كثيرون عرفوا باهتمامهم بفلسفة اللغة من قبيل جورج لايكوف ومارك جونسن. ويعود الفضل إلى هذا الثنائي في بلورة كثير من المقاربات الحديثة التي تتصل ببعض الظواهر البلاغية التي لم تعد تدرس بعد كتابهما "الاستعارات التي بها نحيا" مثلما كانت تدرس من قبل.

وكانت هذه الانطلاقة في تحليل الاستعارة مدخلا إلى الدخول في "صميم الفلسفة" ومنه إلى المبحث الذي نهتمّ به في هذا العرض ونعني "الجسد والعقل". وكلمة عقل في اللغة العربية نقصد بها كلمة (mind) الإنجليزية وحرف الجرّ (في) الذي ربط الجسد بالعقل عند جونسن يثير إشكالا لا ينسحب على شذوذ هذا الاستعمال اللغوي نحويا، فهذا أمر يسير، بل يتطرّق إلى أمر أبعد من ذلك، الا وهو "جسدنة" العقل، بدل "عقلنة" الجسد، وهذه أطروحة فلسفية معاصرة تناقض الإرث الفلسفي القديم الذي حاولت فيه الأنساق الفلسفية التقليدية إضفاء نوع من الإقصاء، او الاحتواء للجسد عبر تسليط العقل عليه ليقمع قواه "الغضبية" و"الشهوانية"... وغير ذلك من الألفاظ التي نجدها في المتون الفلسفية الوسيطة، على وجه الخصوص.

الطرح الفلسفي للدلالة

هـذه الإشـارة إلى الطـرح الفلـسفي لمقاربـة جونـسن ليـست علـى علاقـة مباشرة بما نعنى بتقديمه في هذا العرض، إذ سنهتم بتبيّن طريقة تحليل الدلالة عند جونسن التي تقوم علـى زوج رئيسي يتمثل في: المعلـم والمتنقّل، فكل قول يمكن النظر إلى أنه يحتوي عنصرين أحدهما معلم ثابت والثـاني متنقل، فضـلا عن وجود خطاطات عليا تسيطر علـى طرق بنـاء المعرفـة البشرية لغويا . فضـلا عن وجود مصطلحات إجرائية اعتمدها جونسن في تحليل الأمثلة وتصنيفها .

ولا يخفى اعتماد المنهج التجريبي في هذا التحليل الذي ينظر إلى الظاهرة اللغويـة باعتبارهـا واقعـة نفـسية فيزيائيـة، يمكـن إخـضاعها لمناويـل معرفيـة مجرّدة تحيل الكثرة إلى وحـدة أو علـى الأقل فهـي تحـدّ من الفوضـى الدلاليـة. ويمكن أن نـستبق نذكر بعـض النتـائج الـتي خلـص إليهـا جونـسن، نحـو قولـه: "الحاصل أنّنا الآن في وضعية بداية تفسير كيف أنّ مفهومنا للعقلانيـة المجـرّدة (المنطقيـة الخالـصة) يجـب أن يتأسّـس علـى تفكير ملمـوسٍ يـستخدم نمـاذج الصورة الخطاطية وامتداداتها الاستعارية."

الجسد في العقل[1]

مارك جونسن

تمهيد

يحتاج دارس علم الدلالة اليوم إلى الاطلاع على المناهج الجديدة التي أضحت تُهيمن على النظر إلى المباحث الدلالية المعاصرة. ومن هذه المناهج ما يُعرف باللسانيات المعرفية أو العرفانية[2] وقد ظهرت في سياق تطور علم الدلالة في تنويعاته التي لم تبق حبيسة المدرسة التوليدية، بل كونت خطا موازيا لهذه المدرسة ونهض اعلام كثيرون عرفوا باهتمامهم بفلسفة اللغة من قبيل جورج لايكوف ومارك جونسن. ويعود الفضل إلى هذا الثناني في بلورة كثير من المقاربات الحديثة التي تتصل ببعض الظواهر البلاغية التي لم تعد تدرس بعد كتابهما "الاستعارات التي بها نحيا" مثلما كانت تدرس من قبل.

---

(1) Mark Johnson: Body in the mind.

(2) في تونس يترجم الباحثون المصطلح الفرنسيّ (linguistique cognitive) ومرادفه الإنجليزيّ (cognitive linguistics) بـ"اللسانيات العرفانية". وفي المشرق العربيّ يفضّل الباحثون صفة "المعرفية"، لما قد يلتبس بنعت "العرفانية"، من توجُّه صوفيّ إشراقيّ. (المترجم)

وكانت هذه الانطلاقة في تحليل الاستعارة مدخلا إلى الدخول في "صميم الفلسفة" ومنه إلى المبحث الذي نهتمّ به في هذا العرض ونعني "الجسد والعقل". وكلمة عقل في اللغة العربية نقصد بها كلمة (mind) الإنجليزية وحرف الجرّ (في) الذي ربط الجسد بالعقل عند جونسن يثير إشكالا لا ينسحب على شذوذ هذا الاستعمال اللغوي نحويا، فهذا امر يسير، بل يتطرّق إلى امر ابعد من ذلك، ألا وهو "جسدنة" العقل، بدل "عقلنة" الجسد، وهذه أطروحة فلسفية معاصرة تناقض الإرث الفلسفي القديم الذي حاولت فيه الأنساق الفلسفية التقليدية إضفاء نوع من الإقصاء او الاحتواء للجسد عبر تسليط العقل عليه ليقمع قواه "الغضبية" و"الشهوانية" ... وغير ذلك من الألفاظ التي نجدها في المتون الفلسفية الوسيطة، على وجه الخصوص.

هذه الإشارة إلى الطرح الفلسفي لمقاربة جونسون ليست على علاقة مباشرة بما نعنى بتقديمه في هذا العرض، إذ سنهتم بتبيّن طريقة تحليل الدلالة عند جونسن التي تقوم على زوج رئيسي يتمثل في: المعلم والمتنقل، فكل قول يمكن النظر إلى انه يحتوي عنصرين احدهما معلم ثابت والثاني متنقل، فضلا عن وجود خطاطات عليا تسيطر على طرق بناء المعرفة البشرية لغويا. إضافة إلى وجود مصطلحات إجرائية اعتمدها جونسن في تحليل الأمثلة وتصنيفها.

ولا يخفى اعتماد المنهج التجريبي في هذا التحليل الذي ينظر إلى الظاهرة اللغوية باعتبارها واقعة نفسية فيزيائية، يمكن إخضاعها لمناويل معرفية مجرّدة تحيل الكثرة إلى وحدة او على الأقل فهي تحدّ من الفوضى الدلالية. ويمكن ان نستبق نكر بعض النتائج التي خلص إليها جونسن، نحو قوله: "الحاصل اننا الآن في وضعية بداية تفسير كيف انّ مفهومنا للعقلانية المجرّدة (المنطقية الخالصة) يجب ان يتأسّس على تفكير ملموسٍ يستخدم نماذج الصورة الخطاطية وامتداداتها الاستعارية." (المترجم)

مفهوم الخطاطة[1]

الخطاطة (schema) هي تشكيلة من المعرفة التي تمثّل مسارا أجناسيا مخصوصا او شيئا او إدراكا او حدثا او مقطعا من الأحداث او وضعية اجتماعية. وتوفّر هذه التشكيلة هيكلَ بنيةٍ لمفهوم يمكن ان يُقدَّم "بوصفه مثالا او محشوًا بخصائص تفصيلية للحالة الممثّلة المخصوصة.

وقد فهم كانط الخطاطات بوصفها بنى الخيال التي تصل بين المفاهيم والمُدركات. وهو يصفها بكونها "إجراءات لبناء الصور" ومن ثمّة فهي تشمل النماذج الإدراكية في تجربتنا الجسدية. وكما نرى، فإنّ تفسير كانط محكوم بنظرته الخاصّة إلى المفاهيم، ولكنّه يقرّ بالطبيعة الخيالية وغير القضوية للخطاطات.

ويمكن تمييز خطاطات الصور عن الصور الذهنية بالنظر إلى بعض الخصائص، كما يلي:

1- خطاطات الصور مجرّدة وليست مقيّدة فقط بالخصائص المرئية.

2- لا غرابة في أن ننجز عمليات ذهنية على خطاطات الصور، وهي عمليات مماثلة للعمليات الفضائية.

3- وصف تحوّلات خطاطة الصورة التي تحدّد مستوى تجريد عمليات خطاطية غير قضوية اكثر ممّا تحدّد مستوى تجريد الصور الثريّة.

---

(1) نجد تعريف جونسن للخطاطة في الفصل الثاني من كتابه "الجسد في العقل" (مرجع مذكور)، وعنوانه "انبثاق المعنى عبر البنية الخطاطية" ويقع في الكتاب بين صفحتي 18 و40 [المترجم]

ولْننظر إلى قدرتنا على إنجاز التحوّلات التالية على خطاطات الصور الاساسية:

ا) من بؤرة الطريق إلى بؤرة نقطة النهاية. يقع تتبُّع طريق شيء متحرك في الخيال ومن ثمّة يتمّ التركيز على النقطة التي تصل إلى الهدء او سوف تصل إليه.

ب) مضاعفة الحجم. إذ تُتخيّل مجموعة اشياء منفصلة. ثمّ يقع التحرُّك بعيدا (في ذهنك) من المجموعة ما دامت تشكيلة الأفراد بدات تتحوّل إلى كتلة واحدة متجانسة.

ج) يقع تتبُّع المسار. مثلما ادركنا موضوعا متحركا بشكل متواصل، فإنّه يمكننا ان نرسم ذهنيًا الطريق الذي اتبعه اوالمسار الذي هو بصدد متابعته.

د) يُوضَعُ فرْضٌ فوقيٌّ. تخيّل مثلا قرصا واسعا ومكعّبا صغيرا. يتمّ تكبير حجم المكعّب إلى ان يصير مناسبا لحجم القرص. والآن قلّصْ حجم المكعّب وضعْه بجانب القرص. في هذه الحالات وفي كثير من حالات تحويلات خطاطة الصور الطبيعية، نستعمل قدرتنا على مزاولة بنى مجرّدة في فضاء نهنيّ.

4- تمييز اخر بين الصور الذهنية وخطاطات الصور يتمثل في انّ هذه الاخيرة متأثّرة بمعرفة عامّة على نحو من الأنحاء، في حين انّ الاولى ليست متأثّرة بها. فالخطاطات اكثر تجريدا واشدّ مرونة من الصور الذهنية.

واختصارا فإنّه يوجد مستوى خطاطيّ للصورة في العمليات المعرفية وهذا الدليل يدعّمه التمييز بين بنية خطاطة الصورة والمستوى الأكثر تحجّرا للصور الثريّة او للصور الذهنية ومن ثمّة فليست خطاطة الصورة، صورةً ثريّةً مخصوصةً.

ومع ذلك بقيت حجّة اخرى قويّة ضدّ خطاطات الصور وتحويلاتها الطبيعية التي تجد مدافعين عنها في ابحاث الذكاء الاصطناعيّ الراهنة. إنّها "النظرية القضويّة" التي تنظر إلى المخيّلة الذهنية باعتبارها مجرّد ظاهرة مصاحبة لتمثيلات قضوية رئيسية. وينفي بيليشين (Pylyshyn) [1] وجود ايّ واقعة ذهنية مستقلّة للمخيّلة ويدّعي هكذا انّ ايّ صورة ذهنية او بنية خطاطية او عملية تقع عليهما، يمكن ان يتمّ تمثيلُها كلّيًا في شكل قضَويّ.

وكي نعلم ابعاد هذه الدعوى، فلْننظر في ما ينجرّ عنها. إذ وفق هذا التصوّر القضويّ، يمكن تمثيلُ كلّ مشهد ذهنيّ في شكل رموز اعتباطية (نحو س، ص، غ) وهي التي تُستعمل لتمثّل ملامح من المشهد نحو النقاط، الحدود، المساحات، او اشياء كاملة. وتُستعمل رموز اعتباطية اخرى لتمثيل العلاقات الحاصلة بين هذه الرموز الأخرى. الآن ليس سبيل الخروج ما إذا كان بوسعنا وصف الصور وخطاطات الصور قضويًا بيد انّ السبيل الصحيحة تتصل بالحقيقة المعرفية للصور والخطاطات، وذاك ما تنفيه النظرية القضوية. وقد بيّن جورج لايكوف (George Lakoff) [2] لِمَ لا تشتغل هذه الصيغة الكبيرة. إنّها فشلت بالاساس لأنّها لا تضع في حسابها تحويلات خطاطات الصور

---

(1) Zenon Pylyshin,"The Imagery Debate: Analogue Media vs. Tacit Knowledge". Psychological Review,no.1 (1981),p-p.16-45.

(2) George Lakoff,1987, Women, Fire, and Dangerous Things: What Our Categories Reveal about the Mind, Chicago: University of Chicago Press .

الطبيعية. إنّها تدّعي انّ التمثيلات القضوية فقط واقعيّةٌ معرفيا. والحال انّ مثل تلك التمثيلات هي مقاطع من رموز اعتباطية لعناصر وعلاقات فحسب، ومن ثمّة فهي ليست "طبيعية". وبالمقابل، فإنّ تحويلات الصورة الخطاطية عمليات طبيعية متكرّرة وهي واقعيّةٌ معرفيا. ويوضّح لايكوف:

الأسماء التي سمّينا بها خطاطات الصور وتحويلات خطاطات الصور، شديدةُ الموافقة لجنس الترميز الذي يمكن انْ يُستخدم في دراسات رؤية الحاسوب. ولكنّ الأسماء ليست هي الأشياء المسمّاة. وتوضّح ذلك السمةُ الطبيعيةُ لتحويلات الصورة الخطاطية المتّصلة بتجربة الرؤية، بوصفها مقابلةً لاعتباطية اسماء تلك التحويلات. ويبدو لي انّ تحويلات خطاطات الصورة واقعيةٌ معرفيا، ... وتعرض علينا السمة الطبيعية لهذه التحويلات المتصلة بتجربة الرؤية عندنا، فكرةَ كونِ تحويلات الصورة الخطاطية والخطاطات المرتبطة بها، ليست قضويّةً بطبعها (بالمعنى الذي يُستعمَلُ فيه اللفظُ في دراسات رؤية الحاسوب) بل بالأحرى هي صوريّة بطبعها حقيقة.

والحاصل من هذا القسم انّ خطاطات الصور وتحويلاتها تشكّل مستوى مميّزا من العمليات المعرفية، التي تختلف عن كلٍّ من الصور الثريّة المتحجّرة (الصور الذهنية) من جهة، وعن التمثيلات القضوية النهائية من جهة اخرى.

وتقع خطاطات الصور في مستوى من العموميات والتجريد يسمح لها بأن تشتغل بوصفها نماذج محدّدة في خضمّ عدد ضخم من التجارب غير المحدّدة وفي خضمّ إدراكاتٍ وتكوينٍ لصور الأشياء او الأحداث المهيكلة بطرق ملائمة بالمثل. والملمح المهمّ في هذه الخطاطات انّها تحتوي عناصرَ او مكوّناتٍ اساسيّةً قليلةً مرتبطةً ببنى محدّدة، ومع ذلك تتّسم بقدر من المرونة. وكنتيجة لهذه البنية البسيطة، تُعدّ الخطاطاتُ وسيلةً رئيسيةً لإنهاء الترتيب في تجربتنا ومن ثمّة يمكننا ان نفهمها ونفكّر فيها.

وتتوفّر الخطاطات النمطية على اجزاء وعلاقات. ويمكن ان تتكوّن الأجزاء من مجموعة من الكيانات (نحو الناس، الدعائم، الأحداث، الأحوال، المصادر، الغايات) . امّا العلاقات فتشمل علاقات علّيّة او مقاطع زمنية او نماذج جزئية او كلّيّة او مواضع متناسبة او بنى فاعلية – مفعولية او علاقات الية (اداتية) . ومع ذلك تتخذ الخطاطة، عادةً عددا قليلا من الأجزاء مرتبطةً بعلاقات بسيطة.

وتوفّر "خطاطة من- إلى" او "خطاطة الطريق" مثالا جيّدا لمعنى "الأجزاء" و"العلاقات":

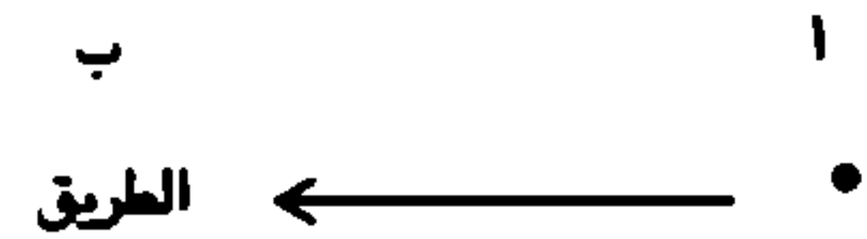

تتكوّن خطاطة الصورة هذه من ثلاثة عناصر (نقطة مصدراً، نقطة نهاية ب، وموجّه يرسم الطريق بينهما) ومن علاقة (انتقال قوّة التوجيه من ا إلى ب) . خطاطة من - إلى هذه، هي بنية متكرّرة توجد في عدد من الأحداث المختلفة على ما يبدو، من قبيل (ا) الذهاب إلى مكان اخر، (ب) قذف كرة البيزبول إلى اختك، (ج) لكْمك اخاك، (د) إعطاؤك هديّة لامّك، (هـ) إذابة الثلج في الماء. نتوفّر في هذه الحالات المختلفة تمام الاختلاف على الخطاطة نفسها مع الأجزاء والعلاقات الأساسية ذاتها. في المثال (هـ) يجب ان تُؤوَّل الخطاطة استعاريًا حيث تمثّل النقطتان ا وب حالتيْن (جامد وسائل) لمادّة واحدة (الماء) . ومن هنا نقف على كون خطاطات الصور اكثر عمومية وتجريدا ومرونة من الصور الثريّة، وهي تتكوّن من اجزاء محدّدة ومن علاقات بنيوية تنبثق غالبا من مستوى إدراكنا وحركتنا المانيّين او الجسديّين.

تعريف لخطاطة الصورة

علينا الآن ان نضع تعريفا عامّا لخطاطات الصور او للخطاطات "المتجسّدة". فمن جهة، ليست الخطاطات قضايا موضوعية تحدّد علاقات مجرّدة بين رموز وواقع موضوعيّ. ويجب توفّر شروط من صنف خاصّ ليكون ثمّة خطاطات، ولكن ليس بالمعنى الموجود في المعالجة التقليدية للقضايا. ومن جهة اخرى، لا ينبغي ان تكون للخطاطات خصوصيةُ الصور الثريّة او الصور الذهنية. إنّها تشتغل على مستوى من التعميم والتجريد يعلو على الصور الثرية المتحجّرة. وتتكوّن الخطاطة من عدد قليل من الأجزاء والعلاقات، وبموجب ذلك يمكنها ان تُبَنْين إدراكات وصورا واحداثا كثيرة. وتشتغل خطاطات الصور إجمالا على مستوى من التنظيم الذهنيّ يقع بين بنى قضوية مجرّدة من جهة، وصور مجرّدة مخصوصة من جهة اخرى.

امّا الراي الذي اقترحه فهو التالي: من اجل ان تكون لنا تجارب مترابطة ذات معنى، يمكن لنا أن نفقهها وأن نفكر فيها، يجب أن يكون ثمّة نموذج ونظام لأعمالنا وإدراكاتنا وتصوّراتنا. والخطاطة هي نموذج متكرّر، هي شكل وهي إمّا انتظام تتسم به نشاطاتها الجارية او تخلو منه. وتظهر هذه النماذج بوصفها بنى ذات دلالة بالنسبة إلينا لا سيما على مستوى حركاتنا الجسدية في الفضاء، وتصرّفاتنا مع الأشياء، وتفاعلاتنا الإدراكية.

إنّه من المهمّ ان نقرّ بالسمة الدينامية لخطاطات الصور. واعتقد انّها بنى لتنظيم تجربتنا وفهمنا. وقد ذهب كانط ابعد من ذلك إلى حدّ انّه ادّعى (على الأقلّ في بعض المقاطع) انّ الخطاطات مساراتٌ مفهوميةٌ مُبلْبَنةٌ ما قبليًا. ويمكن ان توافق بناها مفاهيم عامّة ويمكن ان تولّد صورا مخصوصة. وبذلك تحصل تجربتنا على نظام دالّ وعلى ترتيب يمكن لنا فهْمه. ويرى كانط ايضا انّ الخطاطات هي بنى الخيال. إلى حدّ الآن، تجنّبنا ايّ ذكْر لـ"الخيال" لأنّه

ينزع بنا إلى عرْض مفاهيم الخلْق الفنّيّ والأوهام والقصص الخيالية ومع ذلك يرى كانط انّ الخيال وسيلة من اهمّ الوسائل التي نحصل عبرها على بنى مفهومة في تجربتنا.

ثلاث خطاطات للصور رئيسية[1]

- خرج زيد من الغرفة.
- ضخّ الهواء.
- اكظمْ غيظك.
- استخرج احسن نظرية.
- اسكت الموسيقى.
- هرب من العَقد بسرعة.

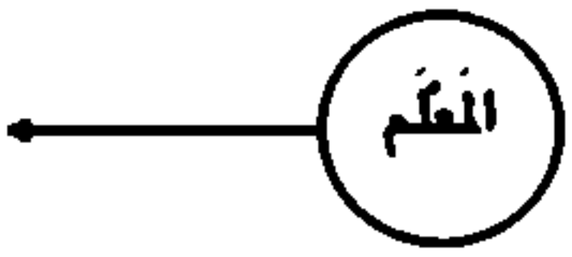

الرسم1

- صبّ اللوبياء.
- طوى السجاد الأحمر.
- أرسل القطعان.
- نشر المعلومة في مطويّة.
- اكتب افكارك.

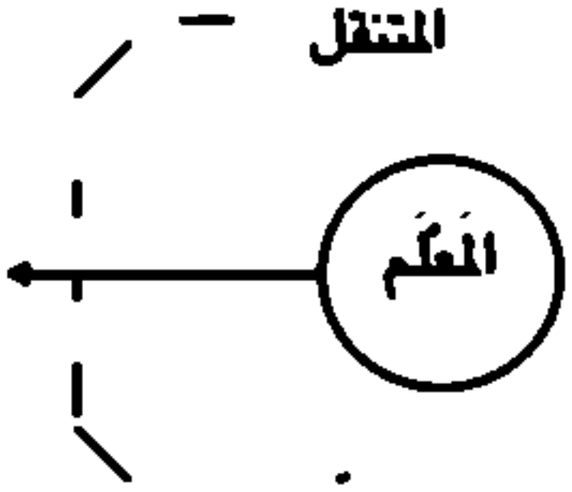

الرسم 2

- بدا القطار رحلته نحو شيكاغو.

الرسم 3

في كلّ واحدة من هذه الخطاطات الثلاث نجد انّ المعْلَم (landmark) هو ذاك الذي يتحرك المتنقّل (trajector) في علاقة به، على نحو شبيه بعلاقة

---

(1) الجسد في العقل. ص32 وما بعدها.

الصورة بالخلفية. وليس الرسم البيانيّ سوى صورة مُحرّفة للخطاطة الحالية، وهي النموذج في بعض التجارب الخاصّة. ولْنأخذ على سبيل المثال "خرج زيد من الغرفة". حيث تمثّل الدائرةُ المَعْلَم الغرفةَ (باعتبارها محتوية)، ويتحرّك زيد عبر السهم (بوصفه متنقّلا) خارجا من الغرفةِ. والآن فإنّ هذه الخطاطة الحالية هي النموذج المتكرّر المتجسّد في مسار زيد مع مراعاة الغرفة المحتوِية. والغريب انّ خطاطة الرسم البيانيّ تعطينا صورةً مُؤمْثَلَةً واحدة للخطاطة الحالية، بما انّه ليس من الضروريّ ان تكون الغرفةُ دائريّةً، كما انّ زيدا لا يحتاج إلى ان يسير في خطّ مستقيم في مغادرته للغرفة. كما انّه توجد فتحة (الباب) في الحدود الحالية والخطاطة بنيةٌ اكيدة لحركات (من) النمطية. فضلا عن انّ الخطاطة تحتوى على الشكل القضويّ النهائيّ الذي نعطيه للملفوظ "خرج زيد من الغرفة". إنّها بالأحرى بنيةُ احداثٍ لتجارب حركات فضائية لصنف معيّن وهي بنية نشطة متواصلة وبينامية ويمكن لنا ان نرى انّ خطاطة (مِن) هذه هي نفسها يمكن ان تمثل عددا ضخما من الاحتمالات التوجيهية، من قبيل:

1- (ا) نزلت مريم من السيارة.

1- (ب) اندلقت لطخة الحبر من قلمه.

1- (ج) ضغط على قليل من معجون الأسنان.

1- (د) مزّق تلك الصورة الكاريكاتورية واحتفظ بها.

1- (هـ) هجر الفراشُ.

ففي هذه الأمثلة ثمّة توجيهٌ فضائيٌّ في ما بين الأشياء والناس والموادّ، إلخ.، راسا وبشكل واضح. والخطاطة المفيدة (مِن) هي النموذج المتكرّر لحركة

(مِن) في كلّ عمل مخصوص. لاحظْ انّ الخطاطة تحققت في كلّ حالة من الحالات المختلفة بطريقة مختلفة رغم انّها تتخذ شكلا معترفا به. بعبارة اخرى يوجد تكرار للشكل في جميع هذه الحالات ولكن ذلك الشكل يُعدَّل في تحقيقه في كلّ حالة خاصّة.

كما انّه من المهمّ ملاحظة انّ اغلب إدراكنا المباشر لـ (مِن) وهي العلاقة في هذه الحالات الأساسية البسيطة، يعود إلى أجسادنا التي توجّه ذاتها توجيها فضائيا كما في القول "نزلت مريم من السيارة". ومع انّه لا شيء مهمًّا يُطَمْئِنُ في هذه الدعوى، فإنّني اعتقد انّ معنى اتجاه (مِن) عندنا، ينعقد بشكل حميم اكثر مع تجربتنا في توجيهنا جسديًا. جسدنا يمكن ان يكون متنقلا (trajector)، كما في القول "خرج زيد من النفَق" او يمكن ان يكون مَعْلَمًا، كما في القول "غَرَفَت البطاطا إلى فيها". وبعبارة اخرى، فإنّ الجسد يمكن ان يقوم بدور "الشيء المحتوَى" او "المحتوي". ولكن يبدو في كلتا الحالتين اننا نطوّر معنى توجيه (في - مِن) عبر حشد من الحركات والممارسات والتجارب الجسدية.

ويبدو لي انّ إسقاط توجيه (في - مِن) نحو اشياء جامدة، يُعدّ حركة اولى وراء الحالة الطرازية لحركتي الجسدية. إذ يبدو انّ الضغط على معجون الأسنان، على سبيل المثال، يشمل إسقاطا لتوجيه (في - مِن) نحو انبوب ومادّة يحتوي عليها ذلك الأنبوب، بالقياس إلى توجيهي الطرازيّ للاشياء، واعتبارا لجسدي. وسواء كان هذا صحيحا ام خطأ، فإنّ النقطة المركزية تظلّ معتبَرة، بمعنى انّ خطاطات (في - مِن) تنبثق اوّلا في تجربتنا الجسدية وفي إدراكنا وفي حركتنا.

ضربٌ اخر من الإسقاط نهتمّ به، يتمثّل في العمل الشامل لمدّ خطاطةٍ ما مدًّا استعاريا انطلاقا ممّا هو ماديّ نحو ماهو غير ماديّ. في مثل هذه الحالات، تتطوّر خطاطة اساسية، من قبيل (مِن) وتمتدّ مجازيًا، بشكل يسمح

لأدوار المَعْلَم والمتنقّل بأن تقوم بها كيانات لم تعُد مائيّةً او فضائية بالمعنى الطرازيّ للكلمتيْن.

إنّها دعوى مركزية في "النحو العرفانيّ"، انّ الإسقاطات الاستعارية من هذا الضرب هي واحدة من الوسائل الأساسية للربط بين معان مختلفة للُفظة.

ولكي نتبيّن ما الذي يدلّ عليه هذا، فلْننظر في بعض المعاني غير الفضائية لـ (مِن) فهذه تشكيلة من المعاني تشمل الامتدادات المجازية (وهنا الاستعارية) لخطاطة (مِن) المستعملة مع الأحداث والأحوال والكيانات المجرّدة المؤوّلة بوصفها كيانات مترابطة، والأمثلة على هذا الضرب من الإسقاط شائعة من قبيل:

2- (أ) اخبرني عن قصّتك مرّة اخرى. ولكن احذف منها التفاصيل الصغيرة (احداث القصّة بوصفها محتوِيَةً).

2- (ب) لقد اقررت بعجزي عن المواصلة. انا انسحب من السباق (حدث السباق بوصفه محتوِيا).

2- (ج) تشدّ ازري دائما، عندما اكون مضطريا (الحالة بوصفها محتوِيَةً) .

تبدو 2 (أ) حالةً بدائية للمدّ الاستعاريّ لخطاطة (مِن) التصوّرية المسبقة. إنّ خطاطة (مِن)[1] التي تُطبّق طرازيا على توجيه فضائيّ، يقع إسقاطها استعاريًا على مجال عرفانيّ حيث ثمّة مسارات اختيار، رفض، فصل، تفريق بين اشياء مجرّدة وهلمّ جرًا. حالات عديدة نحو حذف مِن، اخرج مِن، إلخ.

---

(1) خطاطة (من): out schema. طبعا ليست كلّ الأمثلة الإنجليزية قابلة للترجمة الحرفية. خصوصا وانّ الحرف (out) يستعمل لأداء معان كثيرة. في الإنجليزية ليست متطابقة بالضرورة مع تلك التي يؤديها حرف الجرّ (من) في اللغة العربية.

ويمكن ان تكون اعمالا ذهنية موجُهة. فما تستخرجه من...استعاريًا هي كيانات منطقية او ذهنية مجرّدة. ولكن الخطاطة المفهومية المسبقة المفيدة هي نفسها، عموما بالنسبة إلى كلا معنييْ استخرج من.

وحالات من قبيل ترك، تجعل انتباهنا يركّز على عدم وجود علاقة بين بعض الخطاطات المفهومية المسبقة وتأويلاتها الاستعارية. خذ على سبيل المثال:

3- (ا) عندما تكنّس حطب الوقود، اترُكْ مقياس سرعة السفينة.

3- (ب) لا اريد ان اترك ايّ معلومة مفيدة في قضيّتي.

يمكن ان نشاهد هنا في الانتقال من 3 (ا) إلى 3 (ب) إسقاطا استعاريا اوّليًا في حيّز العمل. فـ3 (ا) حالةً بسيطةً لعلاقة فضائية مائيّة تشمل فقط إسقاطا لـ (في - مِن) اننى نحو كومة الحطب. امّا 3 (ب) فهي، بوضوح، إسقاط استعاريّ، يُفهم في نطاقه كيان مجرّد، قضيّة، باعتباره محتويا تُبَنْينُه خطاطة (مِن) .

صنف اخر مشترك من الإسقاط الاستعاريّ، يعالج الاتفاقات والعقود والالتزامات الاجتماعية بين الناس، باعتبارها كيانات محدّدة. وهذا يولّد عبارات من قبيل:

4- (ا) لن تقف في وجه مَن يتفصّى من الاتفاق.

4- (ب) إن احتجتَ إلى المغادرة، فغادر الآن قبل ان نذهب إلى مكان ابعد.

4- (ج) سيتفصّى من العَقد إن استطاع.

وقد رسم جونسن سبع خطاطات تمثل سبعَ بنى قوّة مشتركةً تجري في تجربتنا بشكل ثابت[1].

(1) الإلزام[2]: كل واحد يعرف تجربة أن تُحركه قوى خارجية مثل الريح والماء والأشياء المائيّة وغيره من الناس. فعندما يتزاحم حشد من الناس، تجد نفسك محشورا في طريق قد لا تكون اخترته، تدفعك قوّة لا تقدر على مجابهتها . أحيانا يكون من غير الممكن الوقوف أمام تلك القوة، كما في حالة خروج الحشد عن السيطرة، وأحيانا أخرى يمكن أن تعدل القوّة أو أن تجابهه. في مثل حالات الإلزام هذه تأتي القوّة من مكان ما ولها أهمية معيّنة وتتحرك في طريق ما ولها اتجاه معيّن. ويمكن لنا تمثيل البنية الجشطلية للصورة الخطاطية، في الرسم البياني أدناه. حيث يمثل السهمُ الأسودُ موجّهَ القوّة الفعليَّ أمّا السهمُ المتقطّعُ فيُشير إلى موجّهِ القوّة الممكنِ أو المسار الممكن.

القوة1

الإلزام

(2) الحجز[3]: في محاولاتنا التعاطي بقوة مع الأشياء أو الناس الموجودين في محيطنا، غالبا ما تعترضنا حواجز تعوق قوّتنا أو تصمد أمامها. من ذلك أنّ الطفل عندما يتعلّم الحبو يواجه حائطا يحول دون تقدمه في اتجاه ما. فالطفل إمّا أن يتوقّف عن بذل الجهد في الاتجاه الأوّل أو أن يغير اتجاهه.

(1) الجسد في العقل، ص- ص45-48.

(2) الإلزام: compulsion

(3) الحجز: blockage

يمكن له أن يحاول الصعود فوق الحاجز أو الذهاب من حوله أو حتّى اختراقه، متى توفرت له القوّة الكافية لفعل ذلك. في مثل هذه الحالات يتعلّم الطفل جزءا من معنى القوّة ومعنى المقاومة القويّة في أوضح أشكالها.

تجربة الحجز هذه، تشمل نموذجا يتكرّر مرّة بعد أخرى خلال حيواتنا. ويمكن تمثيل الجشطلت الملائم بوصفة موجّه قوّة يجابه حاجزا ومن ثمّة فهو يتخذ أيّ عدد من الاتجاهات الممكنة.

القوة1 ←——— □ ← – – – –

الحجز

(3) القوّة المضادّة[1]: تشكيلة ثالثة من البُؤَرِ الجشطلتية في صراع القوى. فمراقب الخطّ في رياضة كرة القدم -على سبيل المثال- متعوّد كثيرا على جشطلت القوّة هذا. هنا ثمّة مركزَا قُوّة متكافئان قوةً وخصومةً يتصادمان وجها لوجه مع نتيجةٍ مُفادُها أنّ أيّ واحدٍ منهما لا يقدر أن يذهب إلى مكان آخر. وكذا المحظوظون من الناجين من حوادث السيارات المُميتة يعرفون معنى البنية المخصوصة للقوّة.

القوة1 ←——— □ ———→ القوة2

القوّة المضادّة

(4) الصرف[2]: تتمثّل تنويعةً للجشطلت السابق في صرف قوّة موجّهٍ بوصفه نتيجةً لتفاعُلٍ سببيٍّ لموجِّهَيْن أو أكثر. فإذا حاولتَ أن تُجدّف بزورق

(1) القوة المضادّة: counterforce

(2) الصرف: diversion

شراعيّ في زاوية مائلة عن الريح، علمتَ انّه من غير تحرُّف في تجديفك، فإنّ قوّة موجّهك الأولى تضيع قبل ان يرتدّ إليك طرْفُكَ. وتبيّن الخطاطة المناسبة قوّتين متعارضتين مع حاصل تغيّر في موجّهات القوّة:

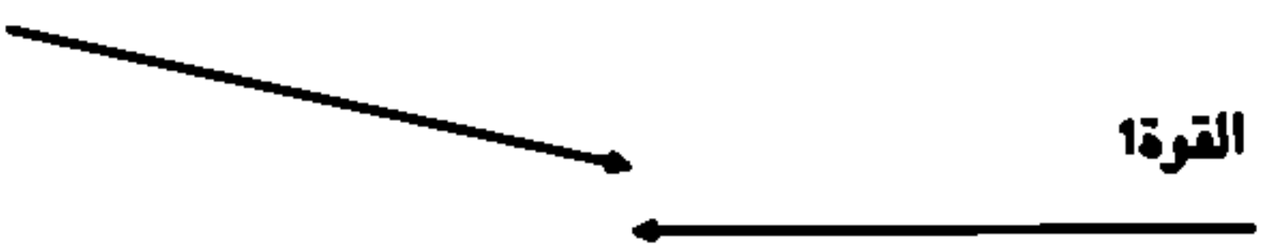

(5) إزالة الحاجز[1]: مثال ذلك عندما يُفتح الباب، يكون بوسعنا دخول الغرفة او عندما يُزال السياج، يمكن للكلب ان يزور جيرانَه من الكلاب إذا شاء. إنّ إزالة حاجزٍ او غيابَ بعض القيود الممكنة هي بنيةُ تجربةٍ تلاقيها يوميا. وهكذا فإنّ الخطاطة المناسبة هي تلك التي تقترح طريقا مفتوحا يجعل بذل الجهد امرا ممكنا.

في الرسم التالي ليست القوّة ق1 مصدر إزالة الحاجز. ولعلّه من الانسب ان تُعدّ حالةً خاصّةً من خطاطةِ الحجزِ المبيّنةِ في (2) اعلاه. بدلا عن ذلك، وُضع الرسم البيانيّ ليدلّ على انّه إمّا لانّ بعض الحواجز الحالية رفعتُها بعض الحواجز الأخرى او لانّ حاجزا ممكنا هو غير موجود حاليا، فإنّ القوّة ق، يمكن ان تظهر (ايْ إنّه لا شيء يحول دون ان تظهر) .

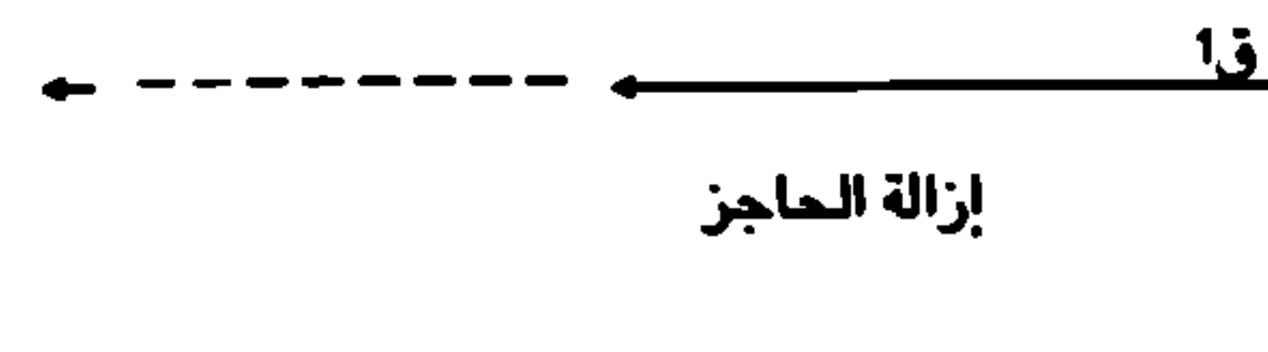

(1) إزالة الحاجز: removal of restraint

(6) التمكّن[1]: إذا اخترت ان تركّز النظر على اعمالك وممارساتك وحركتك، بإمكانك ان تصبح مدركا لإحساس بالقوة (او فقد القوّة) على إنجاز عمل ما. بوسعك ان تدرك انّك قادر على ان تحمل طفلا او مكنسة بقوّة، ولكنك لا تقدر على رفع سيّارتك. ومادام لا يوجد مُوجّهُ قوّةٍ فعليٌّ، فمن المشروع ان نضع بنية الإمكان هذه في جشطلتات القوّة المشتركة، مادام ثمّة موجّهات قوّة ممكنة حاضرة، وثمة "نزعة توجيهية" محدّدة (او طريق حركة ممكن) حاضرة. وهذا ما تحسّ به من قدرة على تحريك الكرسيّ إلى الركن او على رفع المشط إلى شعرك. وهكذا فإنّ الجشطلت يمثل فقط عبر قوّة موجّه ممكنة وبغياب حواجز او قوى مضادّة حاجزة.

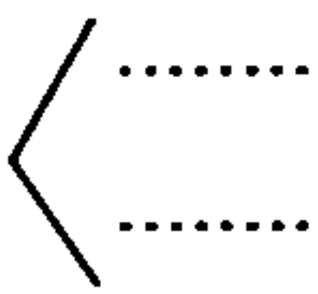

(7) الجذب[2]: مثال ذلك مغنطيس يجذب نحوه قطعة من الحديد او مكنسة كهربائية تجذب لنفسها الأوساخ او الأرض تجذبنا إليها عندما نقفز. ثمة بنية خطاطية للجذب مشتركة بين هذه الوقائع. وتحضر هذه البنية ذاتها عندا نشعر بأنّ انفسنا تنجذب جسديا إلى بعض الناس الآخرين. ليست القوّة جاذبيةً بالمعنى النمونجيّ للعبارة، ولكنها ضرب من الانجذاب نحو شيء ما. وهكذا تقع تحت نفس خطاطة الجذب. يمكن للموجّهات ان تكون

---

(1) التمكّن: enablement

(2) الجذب: attraction

حدثية او إمكانية، وينبغي ان تكون ثمّة اشياء إضافية زيدت لتمثيل علاقات جنب معقّدة اكثر.

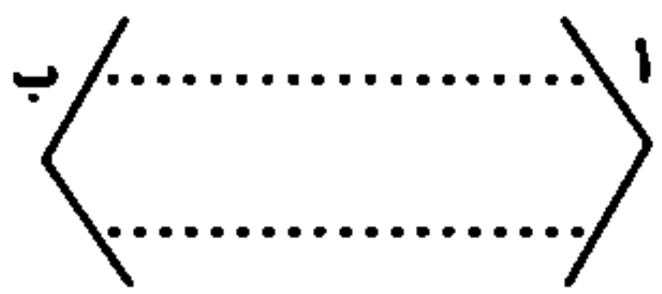

إنّ قائمة جشطلات القوّة السابقة، هي مجرّد انتقاء لاكثر خطاطات الصور اهميةً في القيام بدور في تجربة القوّة عندنا.

جشطلتات القوة[1] في المعاني الأصلية[2] للأفعال الجهية[3]

إنّ الجشطلتات التجريبية (خطاطات الصورة) للقوة التي كنت أصفها للتوّ حاليا هي بنى للتجربة متكررة تنبثق من تفاعلاتنا القويّة في عالمنا. توجد

---

(1) جشطلتات القوّة: force gestalts. فضّلنا تعريب مصطلح "جشطلت" لفظيا دون أن نترجمه إلى اللفظ الذي يوافقه في اللغة العربية وهو "الشكل" او "الصورة". حفاظا على الدلالة الحافّة المرتبطة بهذا اللفظ الألمانيّ الأصل ذي البعد السيكولوجي.

(2) المعاني الاصلية : Root senses

(3) الأفعال الجهيّة: (model verbs) القياس في النسبة إلى الجهة ان نقول "جهويّ" غير انّ خوف الالتباس بالمعنى المكرّس لهذا اللفظ حملنا على اختيار احد حلّين:

- إمّا النسبة إلى الجمع. فنقول "جهاتيّ" ولكن بدا هذا البديل غير موفّق لكون الأمر يصبح إشكاليّا عند الحديث عن فعل واحد.
- او النسبة إلى الجهة دون اعتماد الواو فنقول "جهيّ". وعلى هذا اللفظ الأخير استقرّ الراي.

هذه النماذج بالنسبة إلينا بشكل ما قبل لسانيّ، ومن ثمة فيمكن ان تُبلوَر وتُطوَّر بشكل معتبر بوصفها نتيجة لاكتساب اللغة وللنظام المفهوميّ الذي تجعله اللغة ممكنا. هذه البنى، جزء من المعنى ومن الفهم. وهي لا تشكّل، فقط خلفية ينبثق المعنى تجاهها، بل بالأحرى هي نفسها بنى معنوية.

وفي سبيل تكثيف هذه النقطة المركزية، سنناقش متنَ عمل اختباريّ جديد في علم دلالة الأفعال الجهيّة ذات الاستتباعات المهمة في تصوّري للخطاطات[1]. إنّ الأفعال الجهيّة[2] من قبيل: استطاع[3]، يُمكن له[4]، وجب عليه[5]، قدر على[6]، ... هي افعال تنطبق على تجربتنا في الواقعية والإمكان والوجوب. قد يبدو انّ هذه الجهة (modality) موغلة في التجريد وهي موضوع خاصّ بدراسة كدراستي هذه تزعم انها تنظر في البنى الأساسية للتجربة البشرية المشتركة.

وعندما ينظر احدهم في الكمّ الهائل الذي تخصصه الأدبيات الفلسفية لمبحث الجهة، يصبح الاتهام مبرّرا. إنّ الجهة تُعالج في تلك الأدبيات بوصفها مفهوما منطقيا صرفا، يتعلق بالإمكان او الوجوب المنطقيّيْن.

ويمكن لنا بيان الفرق بين الأفعال الجهيّة المركزية، على النحو التالي: إنّنا نحسّ بأنفسنا قادرين على العمل بشكل من الأشكال (نقدر)، ويُسمح لنا بإنجاز أعمال من اختيارنا (يمكننا)، ونُجبَر بالقوّة خارج نطاق سيطرتنا (يجب علينا).

---

(1) هذا الكلام منقول عن جونسن، الجسد في العقل، ص49 وما بعدها.

(2) الأفعال الجهيّة: model verbs

(3)استطاع: could

(4) يمكن له: may

(5) وجب عليه: must

(6) قدر على: can

وسنرى انه توجد معان رئيسية اخرى للافعال الجهِيّة زيادة على هذه المعاني المنطقية. وسنرى انّ كلّ هذه المعاني تترابط بموجب خطاطات القوّة.

والبحث التجريبيّ الذي احلّله مقتبَس من دراسة عن الافعال الجهِيّة اكثر توسّعا واشدّ دقّة واتقانا، قامت بها إيف سويتسر[1].

وتعدّ معالجة سويتسر للافعال الجهِيّة جزءا من مشروع اكبر تفحص فيه الباحثة الروابط بين ثلاثة ابعاد متصلة من التجربة:

(1) الحيّز الاجتماعي المادّيّ: ويشمل التفاعلات المائيّة كما يشمل العلاقات الاجتماعية والتطبيقات والمؤسسات.

(2) الحيّز المعرفيّ: للحجّة العقلانية والتنظير وسائر انشطة التفكير.

و(3) بنية اعمال القول.

وتتمثل اطروحةُ سويتسر المركزيةُ في كون نظام الاستعارات الشامل والمُبَنْيَن بشكل منسجم، يوجد ويصل بين هذه الاحياز الثلاثة للتجربة. واكثر البنى الاستعارية العامّة التي تقيم هذه الصلات هي تلك التي تعبّر عن الذهنيّ والمعرفيّ والعقليّ بعبارات (من سجلّ) مادّيّ.

---

(1) إيف سويتسر: البنية الدلالية والتغير الدلالي: دراسة لسانية عرفانية للجهة والإدراك والاعمال القولية والعلاقات المنطقية.

Eve Sweetser.1984. Semantic Structure and Semantic Change: A Cognitive Linguistic Study of Modality, Perception, Speech Acts, and Logical Relations. Doctoral dissertation, University of California, Berkeley.

هذه البنية الاستعارية التي يكون فيها الجسد في خدمة العقل تُوَجِّهُ في الوقت ذاته درْسَ التغيّر الدلاليّ خلال التاريخ (دياكرونيا) وتوفّر صلات بين بعض معاني الكلمات المشتركة داخل لغة مّا (سانكرونيا).

امّا ما هو اكثر مناسبةً لاهتماماتنا مع البنى الخطاطية للمعنى، فهي حجةُ سويتسر المتمثلةُ في انّ المعاني المختلفة للافعال الجهيّة ترتبط ببنى استعارية يصبح فيها المادّيُّ استعارةً لغير المادّيّ (الذهنيّ، العقليّ، الاجتماعيّ) . وتميّز سويتسر بوجه تقريبيّ بين معنيين للافعال الجهيّة واساسا المعنى الاصليّ والمعنى المجازي[1]:

ا – الافعال الجهيّة الاصلية تعني القدرة (يقدر) والإمكان (يمكن) والإجبار (يجب) في عالمنا الاجتماعيّ المادّيّ. اصل القدرة او الإمكان او الوجوب إمّا ان يتعاطى مع القيود المانيّة والقوى (الأسباب الطبيعية) او ان يتعاطى مع التحفّظات والحالات الاستثنائية (القوى الاجتماعية) ومن امثلة المعاني الأصلية للافعال الجهيّة:

(1) يجب ان تُبعد رِجلَك وإلاّ فإنّ السيارة ستدعسها (ضرورة مانيّة).

(2) مريم تقدر ان تعدّ لك البطاطا المقليّة (هي قادرة مانيًا على إعدادها).

(3) يجب على زيد ان يحصل على عمل الآن، وإلاّ فارقتْه زوجته (فزيْد مُجبر، بسبب تهديد زوجته، على ان يجد عملا، ومن ثمّة فالوجوب ليس مانيًا).

(4) يمكنك الآن ان تُقبّل زوجَك (لم يعدْ ثمّة مانعٌ اجتماعيّ ولا مؤسساتيّ من ان تُقبّلَها).

---

(1) المعنى المجازيّ: epistemic sense

فمفهوم جهة الأصليّ اوسع بل يتضمّن جهة الواجب والتي تنزع إلى ان يضعها الفلاسفة مع المفهوم الضيّق للإلزام الأخلاقيّ او الاجتماعيّ.

II – معنى الجهة المجازيّ يعني الإمكان او الاستطاعة او الوجوب في التفكير، كما في:

(5) يجب ان يكون زيد قد حصل على عمل، وإلاّ فإنّه لا يمكنه ان يشتريَ سيارة جديدة. (يُقرا كما يلي " تُجبرني البداهة الحاصلة على استنتاج انّ زيدا حصل على عمل").

(6) يمكن ان تكون مصيبا في ما يتعلّق بدوافعها، ولكنني لست مقتنعا. (يُقرا كما يلي "لا يُوجد دليل يعارض استنتاجك، ولا يوجد دليل يُجبرني على ان اقول باستنتاجك").

اطروحةُ سويتسر في ما يتعلّق بالربط بين هذين المعنيين تتمثل في انّ المعاني الأصليّة الجهيّة تمتدّ إلى المجال المجازيّ تحديدا لأننا نستعمل عموما لغة العالم الخارجيّ لنطبّقها على العالم الذهنيّ الداخليّ وهو مُبَنْيَنٌ استعاريا بوصفه موازيا للعالم الخارجيّ.

بعبارة اخرى، تُبيّنُ سويتسر انّ معاني الأفعال من قبيل يقدر، يمكن، يستطيع، والتي تنطبق على الحيّز المادّيّ (والاجتماعيّ)، لا تختلف جذريا عن معانيها عندما تُستعمل في حيّز الحجّة العقلانية والتفكير.

وهذا يدّعي انّ الربط الدلاليّ يظلّ في تضادّ مع وجهة النظر المعيارية التي لا ترتبط بها المعاني الأصلية والمجازية من قبيل يجب ويمكن ويقدر، وغيرها، والتي تشتمل على مفاهيم القوّة او الإجبار مع انّه ينظر إلى المعاني المجازية

على انّها تشتمل فقط على توليفات من العوامل المنطقية. باختصار، فإنّ حالات ورود المعاني الأصلية والمجازية تُعتبر قائمة على ضرب من الجناس.

وكبديل لمثل هذه المقاربات الجناسية، يبدو من المعقول على الأقلّ ان ننظر إلى ارتباطات ممكنة بين مختلف المعاني التي تسمها نفس الكلمة او نفس الجملة. ويفتح ليونارد تالمي[1] الطريقَ أمام تنويل للافعال الجهيّة، مستدلاً بكون الجهة الأصلية يمكن ان تُفهم بربطها بخبرتنا مع القوى الفيزيانيّة التي تعمل في حضور الحواجز او في غيابها.

وقد مدّت سويتسر تحليل تالمي إلى الأفعال الجهيّة المجازية وركّزت على المستوى الاجتماعيّ المادّيّ للعمل المقصدي[2] باعتباره اكثر اساسيةً تجريبيا من المستوى المادّيّ الصرف للاشياء المتفاعلة سببيا، وهي التي يعتبرها تالمي اساسيةً.

واعتمادا على تحليل سويتسر، سننظر في ثلاثة افعال جهيّة مركزية (يجب ويمكن ويقدر) مختارة من قائمة طويلة من الأفعال الجهيّة التي درستها. مساهمتي الأوّلية، ستقترح انّ مفاهيمَ القوّة المفيدةَ التي يُحتاج إليها في تفسير الأفعال الجهيّة، يمكن ان تُفهم بشكل افضل بوصفها صورا خطاطية لجشطلتات القوّة.

وكي نبدا، فإنّه من الضروريّ تقديم تقرير مختصر عن المعاني الأصلية ليجب ويمكن ويقدر، قبل ان تستثمر علاقتها بالمعاني المجازية.

---

(1) ليونارد تالمي: ديناميات القوة في اللغة والفكر

Leonard Talmy.1985. Force Dynamics in Language and Thought. In papers from the twenty-first Regional Meeting of the Chicago Linguistics Society. Chicago. Chicago Linguistic Society.p-p.293-337.

(2) العمل المقصديّ: intentional action

I – يجب: يحلل سويتسر المعنى الأصليّ ليجب باعتباره يدلّ على قوّة إلزام تحرك ذاتا نحو عمل ما. غير أنّ هذا المعنى يبيّن بدقّة الصورة الخطاطية للإلزام الذي بيّنّاه، انفا. إذا أعطينا هذه الصورة الخطاطية، فإنّ القوّة يمكن أن تُؤوّل بطرق مختلفة. يمكن أن تكون قوّة ماديّة كما في (1) أو سلطة أبويّة كما في (2) أو تأثير الأتراب كما في (3) أو سلطة أخلاقية تُفهم بوصفها قوّة كونية تفعل في رغبة الإنسان كما في (4).

القوة1 ——→ □ - - - - →

الإلزام

1. يجب أن تحميَ عينيك فإن لم تفعل، فستحترقان.

2. يجب أن يذهب عمرو للنوم، فقد أمرته أمّه بذلك.

3. يجب عليه أن يتبرّع بالدم لمركز التبرّع المتنقّل، كي يحترمه أصدقاؤه.

4. يجب عليها أن تبرّع بالدم، إنّه واجبها.

II- يمكن: يُفهم الفعل (يمكن) بكونه يتمثّل في غياب قيد أو إلزام داخليّ أو خارجيّ. لا توجد حواجز تحول دون ورود أو إنجاز بعض الأعمال. هذا المعنى الأصليّ يرتكز على غياب أو اندثار خطاطة القيد. فأن تقول إنّ بعض الأعمال يمكن أن يحصل، يقتضي كون بعض الحواجز التي يمكن أن تحول دون تحقيق العمل إمّا غير موجودة أو تمّ إلغاؤها. نستعمل الفعل يمكن فقط في حالة الأعمال أو الأحداث التي يمكن أن تعرقل أو يُجبر على فعلها حاجزٌ خارجيّ أو قوّة خارجيةٌ. في المثال (5)، حدث (العلاج) تُعرقله أيُّ حال معروفة للأمور:

5. يمكن ان نكون قادرين على علاج سقمه. في (6) حدث (فتح النافذة) مسموح به وكان يمكن ان يكون ممنوعا، وقد كان سابقا ممنوعا من قبل قوّة ماديّة خارجية ومن قبل قوّة اجتماعية او سلطة اخلاقية.

6. يمكنك أن تفتح النافذة، إن اردت.

III- يقدر: فعل (يقدر) اكثر إشكاليةً واكثر مثارا للجدل من سابقيْه. وتفسّر سوبتسر اختلافه عن يمكن كما يلي: "يقدر يعني قدرة إيجابية من جهة الفاعل، امّا يمكن فيعني عدم وجود قيد على شخص اخر". فيقدر يشتمل على معنى قوّة او قدرة داخلية على العمل. ومع أن يقدر ينزع إلى أن يأخذ على عاتقه غياب الحواجز او عدم وجودها، فإنّ بؤرته الاوّليّة تتمثل في الاستطاعة او القدرة على العمل. ومن ثمّة فإنّه يبدو انّ يقدر يقتضي جشطلته الخاصّ به، وهو جشطلت التمكُّن متكوّنا فقط من مُوجِّهِ قوّةٍ محتمَلٍ. امّا مع يمكن فنُركّز على عدم وجود حواجز فعلية او ممكنة، لكن مع يقدر نركّز على الطاقة الممكنة للعمل. وهكذا، فإنّ التركيز في (7) يكون على عدم وجود قيد من قِبَل شخص اخر، ولكن في (8) ينتقل التركيز إلى معنى داخليٍ لقوّة الفعل.

7. يمكنك ان تذهب في ايّ وقت بعد ان يرنّ الجرسُ.

8. اقدر على ايّ شيء تقدر عليه بشكل افضل.

المعاني المجازيّة للأفعال الجهيّة

تجد المعاني المجازية للأفعال الجهيّة من قبيل يجب ويمكن ويقدر، محلا لها في ميدان التفكير والحجاج والتنظير. تبعا لسويتسر، ازعم انّ المعاني المجازية ترتبط بشكل حميم بمعانيها الأصلية وانّ اساس هذا الارتباط اننا نفهم الذهنيّ بألفاظ الفيزيائيّ والعقل بألفاظ التجربة الجسدية. وخصوصا، نفهم المسارات الذهنية للتفكير باعتبارها تشتمل على قوى وحواجز مماثلة للقوى والحواجز الفيزيائية والاجتماعية. وكي نستثمر هذا الافتراض، فلْننظر ما إذا كانت بنى جشطلت القوّة تعمل في الميدان المجازيّ بطرق موازية لعملها في الميدان الاجتماعيّ الفيزيائيّ.

إنّ مفتاح تحديد الارتباطات بين المعاني الأصلية والمجازية يكمن في التأويل الاستعاريّ للقوّة والحاجز. ففي ميدان الإكراهات والتوقّعات الاجتماعية، يمارس كلّ من الناس والمؤسسات وما يمكن ان ندعوه "الصوت الكونيّ" علينا قُوى مناسبة. هذا الصوت يُفهم معياريا بكونه قانون الضمير او الأخلاق. إنّ هذا المعنى الأخلاقيّ الأقرب إلى صوت السامح - المخوّل هو الذي يعمل في المجال المجازيّ. وقد بيّنت سويتسر انّ مصادر القوة الممكنة الوحيدة في العالَم المجازيّ هي مقدّمات (او ادلّة حاصلة)، ووحدها المقدّمات (او الدلائل او الوقائع) يمكن ان تشكل حواجز قادرة على حجْز قوّة مسارٍ للتفكيرِ. وبذلك ترى سويتسر انّه لا يوجد "سامحٌ-مخوّلٌ" اصليٌّ في الميدان المجازيّ بالشكل الذي يوجد في العالم الفيزيائيّ الاجتماعيّ.

وهذا صحيح بشكل مؤكّد، إذا تمسكنا بالنظريات الشعبية حول التفكير وتعلّقنا بالبداهة اللسانية. لكنني اودّ ان الاحظ انّه يوجد تقليد فلسفيّ يقتضي وجود سامح مخوّل حتّى في الميدان المجازيّ. ففي عديد المعالجات الفلسفية الغربية للمعرفة والعقل والحقيقة ثمة تصوّر استعاريّ موجود لصوت كونيّ يضمن السماح بالمرور من المقدّمات إلى النتائج الناجمة عنها بشكل شرعيّ. هذا هو صوت العقل الخالص. فأن تفكر بشكل صحيح، يعني ان تتكلّم في وفاق مع هذا الصوت الكونيّ. في بعض التقاليد ذات التوجّه التيولوجيّ (وهوعلم الكلام في السياق الإسلاميّ)، يُعرَّف هذا الصوت بأنّه "ذِكْر الله" فهذا التفكير يتناغم مع العقل الإلهيّ. امّا في التقاليد غير التيولوجية، يُعاد تأويل هذا الصوت باعتباره عقلا[1] كونيا، يوفّر عقلا[2]، بحيث انّه يجب على عقولنا ان تتطابق معه.

وسواء كان ثمّة ضامن في الميدان المجازيّ او لم يكن، فإنّ سويتسر على صواب عندما ادّعت انّ مقدّمات البرهان هي التي تقوم بالعمل كله وهي التي تدفعنا طوال الطريق نحو نتيجة مّا. وكما بيّنّا ذلك انا ولايكوف فيما يتعلّق بالبناء الاستعاريّ للميدان المجازيّ، فإنّ إحدى اهمّ استعارات البرهنة والتفكير في ثقافتنا تشمل الحركة طوال طريق نحو غاية مّا (نتيجة).[3] فكثير من الاقتراحات يمكن ان تعرقل رحلتنا، او يمكن ان تساعدنا طوال الطريق او ان تضيّع عنّا الطريق، او غير ذلك. ليست هذه فقط طريقةً للحديث عن البرهان بل إنها تُبَنْيِنُ جزئيا كيف ندرك تفكيرنا

---

(1) عقل: reason

(2) عقل: logos

(3) George Lakoff and Mark Johnson,1980, Metaphors We Live By, Chicago: University of Chicago.

وكيف نستمرّ فيه. إنّ البناء الاستعاريّ للميدان المجازيّ هو الذي يُوجد تأويل القوّة الدينامية للأفعال الجهيّة المجازية.

أ. يمكن: كما في حالة المعنى الأصليّ حيث يدلّ الفعل يمكن على غياب حاجز خارجيّ، ففي حالة المعنى المجازيّ لا يوجد حاجز يحجز الحركة القويّة من المقدّمات إلى النتائج. تقول سويتسر:

هكذا فإنّ المعنى المجازيّ للفعل يمكن أنّه لا يوجد حاجز على مسار التفكير عند المتكلّم انطلاقا من المقدّمات المُتاحة نحو النتيجة المعبَّر عنها في جملة مبدوءة بالفعل يمكن[1].

ويمكن أن يُقرأ المعنى المجازيّ للفعل يمكن كما يلي: لا يوجد دليل متاح يمثّل حاجزا لحركتي نحو النتيجة المخصوصة[2]. ومثلما هو الشأن بالنسبة إلى المعنى الأصليّ للفعل يمكن، فإنّ خطاطة القوّة الملائمة هي خطاطة إزالة الحاجز. وبذلك نحصل على:

9. يمكن أن تكون على صواب. (تقرأ كما يلي: لم يمنعني[لم يمنعنا] الدليل من الحصول على تلك النتيجة، المرتكزة على مقدّماتك.)

---

(1) سويتسر. البنية الدلالية والتغير الدلاليّ. ص74.

(2) التحليل الحالي للمعنى المجازيّ للفعل يمكن يضيّق ويحصر مفهوم التفكير في حركة من المقدمات إلى النتائج. ولعلّ معالجةً اخرى له تكون أكثر ملاءمةً، تحتوي تصوّرا للتفكير أثرى يشمل التفكير الجدليّ الديالكتيكي وحلّ المشكلات العلمية. وما سأصفُه لاحقا بالتوظيف الاستعاريّ، حاليًا، يكفي أن نبرهن أنّ تصوّرا مفترَضا للتفكير يُظهر البنى الموصوفة ههنا.

ان نقول عن شخص ما إنّه يمكن ان يكون على صواب لا يقتضي انّه كذلك. إنّه يدّعي فقط انّه لا توجد وقائع ولا بداهة قريبة تعوق الاتّجاه نحو النتيجة. ولكن ذلك لا يعني ان نقول إنّه لا يوجد دليل اخر لا نعلمه الآن، يمكنه – متى عُرف- ان يعوق النتيجة. اكثر من ذلك، معنى يمكن المجازيّ غالبا ما يدلّ دلالةً حافّةً على المفكّر – ما دام لم يُعَقْ عن رسم نتيجة مّا- يبقى متردّدا ولا يشعرينّه مُجبَر على (القول) بتلك النتيجة.

ب`. يجب: يدلّ الفعل يجب على قوّة لا تُقاوَم تجرّني إلى استنتاج من قبيل:

10. يجب ان يكون سكيرلت بمبرنال[1]! (يُقرا كما يلي: ` يجبرني الدليل الحاصل على استنتاج انّه سكيرلت بمبرنال`.)

إنّ جشطلت القوّة المفيد هو جشطلت الإجبار، لكنّ القوّة هنا عقليّة وليست فيزيائيّة.

وتلاحظ سويتسر لا-تناظُرًا[2] لافتا بين معنيَيْ يجب الأصليّ والمجازيّ. ففي المعنى الأصليّ يُفترَض وقوع تردُّد في إنجاز العمل المطلوب ومن ثمّة يُصار إلى التفكير في قوّة مُلزِمة ضرورية للتغلّب على تلك المقاومة. فزيد، على سبيل المثال، لا ينظّف غُرفته فهو يحتاج إلى قوّة ابوية تُلزِمه بأن يؤدّيَ ذلك العمل. وبالمقابل، يُفترض عموما في الميدان المجازيّ انّه لا يوجد تردّد من جهة الشخص الذي يُفترض انّه مُجبرٌ على ان يصل إلى نتيجة. قد لا

---

(1) سكيرلت بمبرنال: Scarlet Pimpernel

(2) اللاتناظُر: asymmetry

يرغب الواحد في النتيجة او يمكن ان يكون خائفا منها، ولكن المقاومة لا تكون لعمل تتبُّع سلسلة من عمليات التفكير من ذلك القبيل.

وقد لاحظت سويتسر (في المحادثة) وجود تفسير لا بأس به لهذا اللا-تناظُرِ. ففي العالم الفيزياني الاجتماعي، نميل إلى افتراض انّ ايّ تقييد لحرّيّتنا هو امْرٌ غير مرغوب فيه. واعلى حرّيّة نتمتّع بها تتمثّل في ما نتّخذه من اختيارات لإتمام اغراضنا. لذلك فإننا نمانع بشكل معياريّ من ان نُجبر على ان تُقيَّد حرّيّتُنا. لكنّ الأمر يختلف، من الجهة الأخرى، في العالم المجازيّ. ففي تفكيرنا ومشاوراتنا من المحبّذ ان تكون نتائجنا إلزاميّة ومحدّدة. ذلك انّه إذا لم يكن ثمّة ايّ تحديد، وإذا كان ايّ شيء يمكن ان يُستنتَج انطلاقا من مجموعة من المقدّمات والافتراضات، فإنّنا لا يمكن ان نحصل على ايّ معرفة مضبوطة. فمن مصلحتنا ان تُلزمنا المقدّمات، عقليًا، برسم بعض النتائج المحدّدة.

ج`. يقدر: في الميدان المجازيّ لا نعثر على استعمال إيجابيّ للفعل يقدر (كما في المثال `يقدر ان يكون صحيحا`) . وقد وفّر جورج لايكوف تفسيرا معقولا لذلك (في المحادثة) . ففي العالم المجازيّ، إذا كنّا نقدر على التفكير في نتيجة مّا، فإنّه يجب ان نفكّر فيها. إذا كانت توجد قوّة عقليّة كافية لتوجيهنا نحو نتيجة مّا، دعت إليها المقدّمات، فإنّنا مُلزَمون بالتوجُّه نحوها. وعندما تُزال الحواجز، تصبح القوّة جامحةً ويصبح لدينا فعل يجب. (اي `يجب ان يكون صحيحا`) .

ويمكننا، مع ذلك، ان نجد استعمالا سلبيًا للفعل يقدر في المستوى المجازيّ. إذ نجد وضعيات تعوق فيها بعضُ القضايا القوّةَ طوال الطريق المؤدّي إلى النتيجة، من قبيل:

(11) لا يقدر على اللجوء إلى العدوّ. (تُفهم كما يلي "بعض البداهات أو القضايا (نحو معرفتنا بطبعها) تحول بيننا وبين أن نستنتج أنها خائنة.")

إنّ جشطلت القوّة المناسب هنا هو جشطلت التمكّن، ولكنّه يُفهم في الحيّز المجازيّ استعاريًا بكونه يشتمل على قوى أو قدرات.

وكي نختم معالجتنا للمعاني المجازية للأفعال الجِهيّة، نعرض بعض الأمثلة المُعبِّرة لبعض الأفعال الجِهيّة الإضافية التي حلّلتها سويتسر في اللغة الإنجليزية (مثل سوف[1]، يحتاج[2]، يستطيع، ينبغي[3]، يريد[4]، وغيرها). سنعتمد قراءات لصنفيْ المعنى الأصليّ والمجازيّ، كي نبيّن وجود نماذج للتحليل محدّدة ومنتظمة ممكنة، توافق الافتراض الذي نتبعه.

ينبغي عليه:

12 أ) ينبغي عليها أن تعدّ فراشها. (المعنى الأصليّ)

" بعض القوى (إلزام عائليّ) تجعلها تتجه نحو إعداد فراشها".

12 ب) ينبغي أن يعمل. (المعنى المجازيّ)

" يجعلني الدليل الحاصل أستنتج أنّه سيعمل."

---

(1) "سوف" في العربية حرف تسويف يقابل في الإنجليزية الفعل الدالّ على الاستقبال (will)

(2) يحتاج: need

(3) ينبغي يدلّ على كلّ من (ought to) و (should) وحتى (have to)

(4) يريد: would

يجب عليه:

113) يجب عليك ان تقوم بعملك المنزليّ قبل مشاهدة التلفاز. (المعنى الاصليّ)

- قوّة السلطة (الابويّة) تُلزمك بأن تقوم بعملك المنزليّ.

13ب) يجب ان تكون اختَ سارّة، انظر إلى فيها وعينيْها. (المعنى المجازيّ)

- يجعلني الدليل الحاصل (وخاصّة فمها وعيناها) استنتج انّهما اختان.-

يحتاج إلى:

114) يحتاج إلى ان يقيم حفلةً كلّ شهر. (المعنى الاصليّ)

- بعض الشروط الداخلية (يريد ان يكون محبوبا، إلخ.) تجعله يقيم حفلات بشكل منتظم.-

14ب) لا تحتاج إلى ان تكون شيوعيةً، فليس كلّ بولونيّ شيوعيًا. (المعنى المجازيّ)

- الدليل الحاصل (كونها بولونية) لا يُلزمني بأن استنتج انّها شيوعية.-

إنّ التحليل السابق لهذه المعاني المجازية للافعال الجهِيّة يقترح علينا نقطة في منتهى الاهمّيّة فيما يتعلّق بالمعنى والتفكير البشريين. لاحظْ انّ التحليل يتخذ، في كلّ معنى مجازيّ، الشكلَ العامّ التالي:

- بعض مجموعات المقدّمات او الدليل الحاصل، تدفعني لاستنتاج (او تمنعني من استنتاج) كذا-

نرى انّ الجهة ههنا ليست خاصّيّة للقضايا او للارتباطات بين القضايا في حدّ ذاتها، بل إنّ الجهة هي خاصّيّة مسارات تفكير الشخص الذي ينشئ

(او يمتنع عن إنشاء) استنتاج مّا. لا تؤدّي المقدّمات إلى نتائج في حدّ ذاتها منفصلة عن المفكّرين – إنّها تؤدّي إلى نتائج فقط من ناحية كون معناها مدركا، وتُنظر استلزاماتها من قبل وجود بشريّ واقع في العالَم. التفكير هو شيء يقوم به الناس بالقضايا لا ببعض العلاقات المجرّدة عبر القضايا.

بنية الأعمال القولية[1]

لقد فحصنا بعض المعاني الأصلية والمجازية للأفعال الجهيّة، وهي معان متصلة بواسطة بنى القوة الدينامية الموجودة. ورأينا انه في ميدان التفكير، توجد قوى مرتبطة استعاريا بأصناف من بنى القوة تعمل في خبرتنا الاجتماعية الجسديّة[2] عملها. وتظهر خطاطات القوّة ذاتها في المعاني الأصلية والمجازية. وهذه الخطاطات مُحكمةٌ استعاريا للحصول على المعاني المختلفة (ولكن المتصلة) للفعل الجهيّ المدروس. فليس مستغرَبًا، ان نجد بنى قوّة مماثلة تعمل في بنية الأعمال القولية ذاتها. وفضلا عن ذلك، فإنّ الأعمال القولية هي اعمال، وبما انّ اعمالنا "الجسديّة"[3] و"الاجتماعيّة" هي موضوع القوّة، فإنّه علينا ان نتوقّع انّ اعمالنا "اللسانية" هي محلّ للقوى المؤوّلة استعاريا.

---

(1) جونسن. الجسد في العقل. ص57 وما بعدها. والأعمال القولية هي speech acts

(2) الخبرة الاجتماعية الفيزيائية: sociophysical experience

(3) وصف physical في الإنجليزية يُطلق في الوقت ذاته على ما هو ماديّ او فيزيائيّ او جسديّ. لذلك يتغيّر المقابل العربيّ الذي نقترحه له من سياق إلى اخر. [المترجم]

ولعلّه يبدو اننا بانتقالنا من معنى الأفعال الجهيّة إلى بنية الأعمال القولية، نمرّ من علم الدلالة إلى التداولية، وهذا الأمر يقطع وحدة تحليل القوّة السابق. لكن الأمر ليس على هذه الشاكلة، لسببيْن:

احدهما، انّه لا يمكننا ان نساند التفريق الصارم بين علم الدلالة (المعنى) والتداولية (الاستعمال)، إن كنّا نريد ان نفهم كيفية اشتغال المعنى. وفي كثير من الحالات، تحدد كيفية استعمالنا للجملة معناها جزئيًا.

وثانيهما، انّه حتى وإن وُضع خطٌ فاصل بين علم الدلالة والتداولية (وهو ما لا ادافع عنه ولا اتبنّاه)، فإنّه ينبغي ان يظلّ صالحا ان نرى كيف انّ مفهوم "القوّة" في مجال الأعمال القولية يرتبط ببنية الصور الخطاطية الممتدّة استعاريا من خبرة القوة الجسدية عندنا. وعلينا ان نسعى للبحث عن ترابطات ممكنة بين تجلّيات القوننة في كلّ من الأفعال الجهيّة والأعمال القولية.

واخيرا بيّن جون سيرل[1] انّنا يمكن ان نمثّل كلّ الأعمال القولية عبر الصيغة التالية:

ق (ك)

حيث ك تمثّل المحتوى القضويّ للملفوظ امّا ق فهي القوّة اللاقولية[2] التي يُقدّم المحتوى عبرها. فملفوظ من قبيل "هل فرّ زيد؟" يمكن ان يُحلّل بوصفه محتوى قضويا (فرّ زيد) تقدّمه قوّة الاستفهام. وهكذا نرى انّ محتوىً

---

(1) جون سيرل: الأعمال القولية

John Searle,1969. Speech Acts. Cambridge University Press

(2) القوّة اللاقولية: illocutionary force

قضويًا واحدا من قبيل رفْع الجلسة، يمكن ان يكون موضوع عدد من القوى المختلفة لتوليد اصناف مختلفة من الأعمال القولية:

(1) رُفعت الجلسة (القوّة= القيام بإخبار)

(2) هل رُفعت الجلسة؟ (القوّة= استفهام)

(3) "والآن رُفعت الجلسة" يقولها رئيس الجلسة (القوّة= جعل الوضع وضعَ رفْعٍ للجلسة، ايْ فضّ الاجتماع.)

وقد انشأ سيرل – مرتكزا على هذا المنوال- اصنافية لأنواع العمل القوليّ تعرض انواع القوّة الموجودة واصناف الشروط التي يجب ان تحصل عندما يُنجز العمل القوليّ بنجاح.

هدفي الوحيد من رسم تخطيط لهيكل نظرية الأعمال القولية يتمثل في إبراز انّ ثمّة نماذج من القوّة تشتغل في بنية العمل اللغويّ نفسه. لذلك يوجد فضلا عن القوّة المائيّة والاجتماعية والقوّة المعرفية، يوجد مستوى ديناميات قوّة العمل اللغويّ (القوّة اللاقولية) .

وتتمثل دعوايَ المركزيةُ، مرّة اخرى، في كون القوى المفيدة في هذا المستوى الأخير ترتكز هي ايضا على جشطلتات القوّة المُبلْوَرة استعاريًا.

وكيْ نتبيّن بنى الصورة الخطاطية هذه في العمل القوليّ، نحتاج فقط إلى التنكير بانه في اغلب الأعمال القولية يوجد محتوى معروض تحت او عبْر قوّة معطاة. فأحد الجشطلتات المفيدة هو الإلزام.

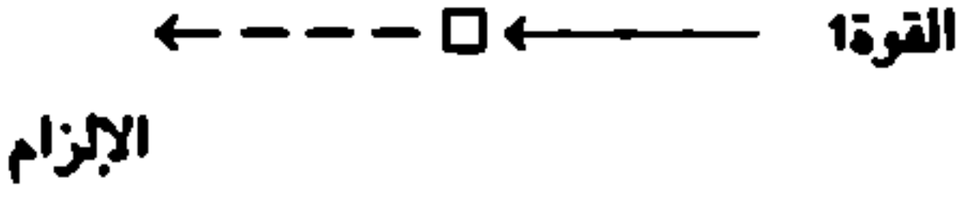

وبإمكاننا ان نكسوَ الهيكل لَحْمًا، وفق الطريقة التالية. فمثلما نكّرنا بذلك مايكل ريدي[1]، توجد استعارة مُفيدة تُبَيِّنُ مُجمل إدراكنا وكلامنا حول التخاطب البشريّ. وقد سمّى ذلك استعارة الناقل، والتي تشمل هذه الأجزاء:

1. الأفكار والآراء هي اشياء.
2. الكلمات والجُمل ظروف تحتوي تلك الأشياء.
3. التخاطب يتمثّل في إيجاد الكلمات المناسبة المحتوِيَة على الأفكارِ-الاشياءِ، ويتمثّل ايضا في إرسال هذه المحتوِيات المملوءة عبر ناقل ما او عبر الفضاء إلى السامع، الذي عليه ان يستخرج الفكرةَ-الشيءَ من الكلمات المحتوِية.

إنّ استعارة الناقل هي بلْورةٌ لجشطلت القوّة المرسوم انفا. يوجد على الأقلّ اربعة اصناف من القوّة (مؤوّلة استعاريًا) يمكنها ان تعمل في وضعية مخصوصة للعمل القوليّ:

(ا) اوّلا، ثمّة قوّة تعمل في الجُمل المحتوية بافكارها-الاشياء لتغيّر شكل التعبير. هذه القوّة تحدّد هيئة التلفّظ (اي المحتوِيَ على العمل القوليّ) . فإذا كنت القي سؤالا، فإنّ التلفّظَ-المحتوِيَ يكون مختلفا عن ذاك الذي استعمله عندما أُنشئ تقريرا او أُصدر امرا. "زيد في الدار" لها صورة او هيئة مختلفة عن "هل زيد في الدار؟"

---

(1) مايكل ريدي: استعارة الناقل

Michael Reddy,1979, "The Conduit Metaphor", in A.Ortony (ed.)Metaphor and Thought, Cambridge University Press.

ومن ثمّة فإنّه توجد قوّة يأتي بها المتكلّم لتحمل على ضبط صورة التلفّظ. ومن ثمّة فإنّها تخدم الأغراض التواصلية لكلّ من المتكلّم والحامل.

(ب) ثانيا، ثمّة قوّة تعمل في السامع لتحدّد كيفيةَ فهمِه الملفوظَ. إنّها "القوّة اللاقوليّة" التي تحدّد فهْمَ السامعِ للملفوظ بوصفه استفهاما أو إخبارا أوامرا أو ضربا آخر من ضروب الأعمال اللاقولية. من ذلك أنّ التقريرات التي يقدّمها المتكلّمون تهدف إلى جعل السامعين يضيفون بعض الاعتقادات إلى معتقداتهم السابقة. أمّا الاستفهامات فتجعل السامع يحاول توفير بعض المحتويات المفيدة لسدّ ثغرة في بعض البنى الخبرية. وتمارس التوجيهات قوّةً لجعل السامع يحقّق بعض احوال الأمور. أمّا الإنشائيات (التي يسمّيها سيرل "التصريحيات") فتشكّل تغييرات قويّة لوضع العالم.

(ج) ثالثا، تكتسي القوّة التي أرسلت عبرها الكلمة أو الملفوظ-المحتوِي بواسطة ناقل أو خلال الفضاء بين المتكلّم والسامع، اهمّيّةً ما. وهذا يعني انّه يمكن ان توجد "درجاتٌ من القوّة او المتانة" مختلفة في صنع العمل القوليّ.

وهذه قضيّة تستوجب التركيز عليها، كما سنرى ذلك في (4) و (5) .

(4) تحتاج إلى حذر شديد قرْب الأُسود.

(5) نشدتُكَ اللهَ، احترسْ من هذه الأُسود!

كِلا هذين الملفوظيْن تحذير، بيدانّ الأوّل مُلَطَّفٌ في حين انّ الثاني اقوى منه (فقط أُنشئ بقوّة اشدّ) . ويكمن الاختلاف بينهما في القوّة التي وُضعت في

الجملةِ- المحتوِيةِ التي القت بثقلها على السامع.

(د) رابعا واخيرا، توجد بعض التأثيرات الناتجة عن قوّة الملفوظ اللاقولية. فامْرُكَ إيّايَ بأن المّعَ حذائي (إضافةً إلى فهمي لمعنى ملفوظك بأنّه امرٌ) قد يُلزمني بتلميع حذائي وقد يجعلني اضحك في وجهك او اسبّك. ويُعرف ذلك في نظرية الأعمال القولية بـ"التأثيرات القولية" للعمل القوليّ.

ويفهمها اوستين[1] تأثيرات سببية غير اصطلاحية في اعمال السامع او حاله نتيجة لفهم السامع للقوّة اللاقولية للملفوظ.

إلى هذا الحدّ، نكون قد ناقشنا خطاطة الإلزام فحسب، في بعض تفاصيلها وهو عندما تعمل في البنية العامّة للاعمال القولية. ومع ذلك فلن نستمرّ في هذه النقطة، إذ توجد جشطلتاتُ قوّةٍ مفيدةٌ عدّةٌ اخرى، فضلا عن تلك التي لـ الإلزام والتي تنشئ اعمالا قولية متنوّعةً، وبالخصوص يمكن ان نفكّر في الطرق المتعدّدة التي يمكن ان تُصَدَّ بها القوى اللاقولية، سواء اكانت محتوى الملفوظ ذاته او سياق الملفوظ[2]. في هذه الأحوال نودّ على الأقلّ تحليل دور جشطلتات الحَجْز وإزالة الحاجز والصرْف والقوّة المضادّة.

---

(1) اوستين: J. L. Austin

(2) اوستين هو اوّل من رتّب هذه الإخفاقات عمليات الفشل الممكنة في إنجاز الأعمال القولية. انظر:

Austin, How to Do Things with Words.

وكي نصل إلى ختام النقاش حول خطاطات القوّة في الأعمال القولية، اودّ ان اضع في الاعتبار مثالا مُعبّرا عن ظاهرة من هذا القبيل، اي حيث يمكننا إدراك التوتّرات في علاقات القوّة ضمن العمل القوليّ نفسه. ثمّة طريقة اخرى لتقرير ذلك تتمثّل في ان نقول إنّنا نركّز على علاقة القوى داخل مجال التفاعل التخاطبيّ ذاته. وتوفّر لنا سويتسر الأمثلة التالية لبيان وجود قوى وحواجز في العالم التخاطبيّ فضلا عن العوالم الاجتماعية الفيزيائية والمعرفية.

ولْننظر في هذين المعنيَيْن المعرفيَيْن لـ (يُمكن) :

(6) يمكن ان يكون استاذا جامعيًا، ولكنني اشكّ في ذلك لأنّه شديد الحُمق.

(7) يمكن ان يكون ثمّة 6 قوارير من المشروبات في الثلاجة، ولكنني لست متأكّدا من ذلك لأنّ زيدا استقبل البارحة عددا كبيرا من الأصدقاء.

في كلتا هاتين الحالتيْن، يوجد فعل يمكن معرفيّ نفهمه بمعنى "لا يحجزني شيء عن استنتاج كون ..." ولكن لنُقابلْ الآن بين هذين المثاليْن مع المثاليْن القادميْن (8) و (9)، كما اوّلْتُهما:

(8) يمكن ان يكون استاذا جامعيا، لكن من ثابت انّه احمق ("اعتقد انّه استاذ جامعيّ، والحّ – مع ذلك- على انّه احمق".)

(9) يمكن ان يكون ثمة 6 قوارير من المشروبات، ولكن لدينا ما نقوم به الآن ("اشكرك على الدعوة ولكن ليس بوسعي قبولها الآن مع ذلك".)

ومثلما بيّنت ذلك سويتسر، في القراءات المقدّمة اعلاه، فإنّ هذه ليست حالات من الفعل يمكن المعرفيّ. واقتراحها اننا نهتمّ بالعالم التواصليّ

حيث توجد قوى وحواجز تقيّد علاقات القوى اللاقوليّة. إنّها تقرا (8) و (9) كما يلي:

(8`) لا انفي عن عالمنا التواصليّ (المشترك) تقرير كونه استاذا جامعيا، ولكن...

(9`) لا انفي عن عالمنا التواصليّ انّك عرضتَ عليَّ المشروبات، ولكن...

في هاتيْن الحالتيْن لسنا في الميدان المعرفيّ حيث تدفعنا القوى من المقدّمات إلى النتائج، بدلا عن ذلك نحن في فضاء تواصليّ يقيّد المتكلّم فيه او يسمح بالأعمال القولية المتنوّعة (مع قواها التابعة لها) . وتلخّص سويتسر ذلك في قولها:

ففي (هذه الحالات) لا يدلّ الفعل يمكن لا على غياب حاجز واقعيّ (محتوى) عالميّ ولا على غياب حاجز معرفيّ، بل بالاحرى فإنّ غياب الحاجز وارد في العالَم التواصليّ. فالمتكلّم سمح للمخاطب بمعالجة تقريرٍ ما بوصفه ملائما او معقولا او بتقديم شيء[1].

إنّ الظاهرة المتناولة ههنا تتمثّل في وجود شكلٍ عاملٍ جهيٍّ في العالم التواصليّ نحقّق فيه ضروبا من الأعمال القوليّة. بمعنى ان المتكلّم يقول في (8) و (9) سأسمح بتقريرك إلى حدّ معيّن ولكنني سأؤكّد تقريرا اخر لا يتماشى نوعا ما مع تقريرك. ونهتمّ في هذا العالَم التواصليّ بالقوى والحواجز المرتبطة استعاريًا بالقوى والحواجز الموجودة في المجالات الاجتماعيّة الفيزيائيّة والمعرفيّة.

---

(1) سويتسر، ص91. (مرجع منكور)

جشطلتات القوة البنى غير القضوية الموحدة[1]

إنّ الموضوع الأساسيّ لهذا الفصل هو طبيعة الخطاطات التجريبية التي لها بنية جشطلتية وعملية تلك الخطاطات. وقد ركّز الفصل السابق على البُعد غير القضويّ، وسيهتمّ الفصل الحاليّ ببنيتها الداخلية ويستثمر الطريقة التي تحدّد البنية بها شبكة المعاني عندنا. ولقد وثّقت بناء المعنى وفهمه بأمثلة مستخرجة من أهم أبعاد الخبرة البشرية الا وهو تفاعل القوى. توجد ثلاث نقاط رئيسية أودّ ان اشدّد على اساس هذه الحالة التمثيلية (اي حالة جشطلتات القوّة بما هي تؤثّر في معنى الأفعال الجهيّة) :

أوّلا: ابيّن انّ جشطلتات القوّة الخطاطية لها بنية داخلية معتبرة وليست مطابقة لها. بل بالعكس، فإنّ تنظيم بنيتها يجعلها نماذج ذات معنى اساسيّ تجريبيا في خبرتنا وفهمنا. إنّ خطاطات هذه الجشطلتات ذات اجزاء، وابعاد تحتمل علاقات مختلفة تسمح لنا بإكساب تجربتنا معنى. من ذلك انّه حتى في خطاطة الإلزام البسيطة توجد بنية دالة: تتجه القوة الحالية وجهة مّا. فإن تفاعلت مع شيء من الأشياء، فإنها تجعل ذلك الشيء يتحرك في الاتجاه ذاته. ويرسم موجّهُ القوّةِ الملائمُ طريقَ الحركةِ. ومن ثمّة، يمكن تحديدُ موقع الشيءِ المتحركِ في وقت معيّن بالنسبة إلى تقدُّمه طوال الطريق المُسقَط. و، في بعض الحالات، يوجد هدف تتجه نحوه القوّة او الشيء المدفوع بتلك القوّة، يمكن تحديد موقع ذلك الشيء انطلاقا من ذلك الهدف. وبالنسبة إلى مثل هذا الجشطلت الادنى، فإنّه بالضبط جزء من البنية حاليا.

ما يجعل هذا جشطلت صورةً خطاطيةً، هو نمونجها المتكرّر – نموذج يمكن ان يساهم في انتظام خبرتنا وفهمنا وانسجامهما وقابليتهما للفهم. فإن

---

(1) الجسد في العقل، ص61 وما بعدها.

نقول إنّ جشطلتًا هو "اساسيٌ تجريبيا" يعني ان نقول إنّه يشكّل مستوى متكرّرا لوحدة منظّمة لمنظومة تعمل في محيطها. والجشطلتات في المعنى الذي استعملها فيه، ليست معطيات غير قابلة للتحليل ولا بنى نرّيّة. إنّه يمكنها "ان تُحلّل" ما دامت تشتمل على اجزاء وابعاد. ولكنّ ايّ اختزال يُعمد إليه يهدم الوحدة (النظام الدالّ) التي تجعل البنية دالّةً في المقام الأوّل.

لا شيء نجعله "حجرَ الأساس" او "اساسيًا" فيما يتعلّق ببنى جشطلت الصورة الخطاطية. فما يمثّل مستوى اساسيا تجريبيا يتحدّد تبعا للخلفيّة المعرفية والتبريرات والمصالح والقيَم والخبرات السابقة. امّا فيما يتعلّق بالتفاعلات بين الأشياء الفيزيائية، على سبيل المثال، فما هو جشطلتٌ اساسيٌ عند رجل الدين، يختلف اختلافا جذريًا عن ذاك الذي يكون عند عالِم الفيزياء الذي يحمل نظريّة في منتهى التطوّر لفهم طبيعة العالَم الفيزيائيّ وللتفاعل معه. إنّ التنسيس التجريبيّ امرٌ نسبيٌ. لكن بما انّ اجسادنا ذات خريطة فيزيولوجية متشابهة، فإنّنا ننتظر إيجاد بنى جشطلتية مشتركة (إن لم تكن كونيّة) لكثير من تفاعلاتنا الفيزيائية في محيطنا.

ثانيا: ابرهن على انّ شبكة المعنى الواسعة عندنا تتوقّف على طبيعة جشطلتات الصورة الخطاطية وعلاقاتها. ويوفّر لنا عمل سويتسر بلورةً للزعم القائل إنّ المعنى يشمل صورا خطاطيةً. وإنّنا لم نركّز – كما كان ينبغي لنا- على الأمر الغريب المتمثّل في كون معنى كلمة "قوّة" يشمل كلّ الخطاطات التي رسمناها بيانيًا وغيرها. بدلا عن ذلك، فحصنا الطريقة الأدقّ التي تنشأ فيها معاني الأفعال الجهيّة من خطاطات صورة القوّة. إنّ إسقاط البنية المحدّدة وعالية التمفصل، يكون دائما انطلاقا من مجال ما هو فيزيائيّ (كما هو مُنمذجٌ بشكل ما قبليّ تصوّريًا) نحو العوالم الاجتماعية والمجازية وافعال القول. إنّ

إسقاطات البنية هذه من مجال تجريبيّ إلى مجال من صنف اخر هي مسارات استعاريّة. إنّ طبيعة الإسقاطات الاستعارية هي موضوع الفصل التالي[1]. امّا الآن، فإنّ النقطة المركزية تتمثل في انّ كثيرا من البنى التي نجدها في المجالات الاجتماعية والمجازية والمحادثية او اعمال القول، ترتبط بشكل حميم ببنية موازية في تجربتا الجسدية (المسمّاة تجربة فيزيائية) .

ثالثا: لقد عرضنا، تجريبيا، إلى وجود بنية استدلالية في الميدان المجازيّ المرتبط بالعوامل الجشطلتية لتجربة القوّة الفيزيائية وعوائقها. إنّ معنى الفعل يجب في العالَم المجازيّ، كما راينا ذلك، يشمل خطاطة الإلزام، حيث تحرك قوّةٌ مّا موضوعا طوال طريق. في المجال المعرفيّ، هذه هي مجرّد نموذج استدلاليّ، حيث إذا كان شيء ما يجب ان يكون صحيحا، فإنّنا مجبرون على الاستدلال على انّه لا يوجد استنتاج اخر.

هكذا نعود من حيث انطلقنا، مع اشدّ مفاهيم الجهةِ "منطقيّةً" كما تنشأ في الاستدلال. وفي ما يلي نهتمّ بنماذج استدلالية مهمّة تتأسّس على خطاطات القوّة.

---

(1) يتحدث جونسن هنا عن الفصل الرابع في كتابه "الجسد في العقل" وعنوان الفصل هو: "الإسقاطات الاستعارية لخطاطات الصورة" ويقع بين الصفحتيْن 65-100.

النماذج الاستدلالية لجشطلتات القوة

اقترح علينا جونسن في نهاية الفصل السابق[1] بعض الاقتراحات التي تتعلّق ببعض نماذج الاستدلال التي يجب ان تتنسّس تجريبيًا في خطاطات التضمُّن. وإنّ استغلال الخطاطات غير قضويّة وامتداداتها الاستعارية، يوفّر بديلا للراي القائل بأنّ "جوهر العقلانية فقط هو الذي تكون له بنية شكلية ما قبلية". قد تكون هناك بنى عقلانية مسبقة، لكنّنا لا نحتاج إلى ان نقبل هذا ببساطة على انّه اساس لا يمكن ان يُوضَع موضع مساءلة. وكي اواصل اقتراحي اكثر، اودّ ان اخذ بعين الاعتبار تشكيلةً ممثّلةً من التوافقات في منطقٍ جهِيٍ يبدو انّها تتنسّس على خطاطات القوّة.

تتضمّن فروعُ المنطق الجهِيُ التقليديُ دراسةَ الوجوب والإمكان منطقيًا واخلاقيًا ومعرفيًا. وكما رأينا ذلك، فقد بيّن تالمي وسويتسر انّ مثل هذه المفاميم الجهِيّة تُفهَم تحت عبارات القوى كما جرّبناها في إدراكاتنا الجسدية واعمالنا. وكلّ عالَم من العوالم المنطقية الجهِيّة يشتمل على ضروبٍ من القوّة مُوافقةٍ له: قوّة المنطق والقوّة الاخلاقيّة وقوّة الراي. ولْننظر في الضرورة المنطقية كما تُفهم بعبارات قوّة المنطق.

ان نقف خلف فهمنا للضرورة المنطقية، يعني انّ قوّة المنطق تغمرنا. وكما بيّنّا ذلك في الفصل الثاني، فإنّ القضايا محدّدة بمحلاّتها. إذ تحملنا قوّة

---

(1) المقصود بذلك هو الفصل الثاني وعنوانه "لنبثاق المعنى عبر البنية الخطاطية" ويقع بين الصفحتين 18- 40. من كتاب جونسن. انظرْ اعلاه.

المنطق من محلٍّ قضويٍّ إلى اخرَ، دافعةً إيّانا إلى النتائج. من هذا، فإنّ البديهية الأساسية لمنطق الضرورة المنطقية، هي كما يلي:

□ ق ← ق

(" إذا كانت ق ضرورية منطقيا، فإنّ ق صحيحة.") إذا كانت قوّة المنطق تعمل لتحريكك إلى "مكانٍ" مّا، فإنّك تغادر ذلك المكان.

توافُقًا مع ذلك، فإنّ الإمكان المنطقيّ هو غياب أيّ عائق يعوق الطريق نحو موقعٍ مّا. يعني ذلك انّ شيئا مّا يكون ممكنا منطقيًا، إذا لم يكن ثمّة شيء يحول بيننا وبين الوصول (الاتجاه نحو) تلك النتيجة. إذا فهمنا النفيَ بعبارات خطاطة المحتوِي (لا- ق تقع خارج الفضاء المحدّد الذي يُعرِّف ق)، فإنّ العلاقة الحدسية بين الوجوب والإمكان، تعقب ذلك مباشرة:

□ ~ ~ ق ◊ ← ق

(" إذا لم يكن من الضروريّ منطقيًا ان تكون ق كاذبة، فإنّه من الممكن منطقيا ان تكون ق صادقة.") وهذه هي نتيجة فهمنا للوجوب بعبارات القوّة المهيمنة والنفي بوصفها محلاً خارج الفضاء المحدّد. انظر ما الذي يعنيه □ ~ ق في الميدان الفيزيائيّ: إنّه يوافق المنطقة المحدّدة حيث توجد قوّة مهيمنة تؤدّي إلى المنطقة التي توجد خارج الفضاء الذي تحدّده ق. امّا ~□~ ق فيضعنا خارج المجال المحدّد حيث تعمل مثل تلك القوّة، وتتركنا توافقا مع ذلك في مكان حيث لا توجد قوّة مهيمنة تحول بيننا وبين التحرك نحو ق. وهذه هي المنطقة التي يحدّدها ◊ ق.

وتشكّل هذه العلاقات المنطقيّة اسس كلّ حسابات الوجوب المنطقيّ. وتختلف البديهيات الأخرى من نظام إلى اخر. فضلا عن ذلك، فإنّ البديهيّات يمكن ان تختلف عندما ننتقل من الوجوب والإمكان المنطقيَّيْن إلى الأخلاقيَّيْن إلى المجازيَّيْن. من ذلك اننّا في المجال الأخلاقيّ، ليست القوّة الأخلاقية مهيمنةً، ومن ثمّة فإنّه لا يمكننا ان نفعل ما ينبغي علينا فعله دائما. لكن مهما كانت طبيعة القوّة بالنسبة إلى عالَم مخصوص، يظلّ فهمنا الوجوبَ في عبارات القوّة سواء في المجال المنطقيّ او الأخلاقيّ او المجازيّ.

والحاصل اننّا الآن في وضعية بداية تفسير كيف انّ مفهومنا للعقلانية المجرّدة (المنطقية الخالصة) يجب ان يتأسّس على تفكير ملموس يستخدم نماذج الصورة الخطاطية وامتداداتها الاستعارية. إنّ أعمال تفكيرنا وتأمّلاتنا ليست مستقلّة بشكل كامل عن البُعد غير القضويّ لخبرتنا الجسدية. بوسعنا ان نقوم بالتجريد بعيدا عن هذا الأساس التجريبيّ، لذلك فإنّه يبدو أحيانا وكأننّا نشتغل فقط ببنى ما قبلية لفِكْر خالص: ومع ذلك، فإنّ الحدّ الذي يمكننا ان نُصبغ عليه دلالةً من هذه البنى الشديدة التجريد هو الحدّ الذي يجعلنا نربطها بمثل تلك البنى الخطاطية إذ تصل بين تجاربنا الدالّة.

تنسيق وإنجاز: صفاء نور الإبصار 00962795507987 safa_nimer@hotmail.com

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

مسارات
المعرفة والدلاله

مسارات المعرفة والدلاله

صابر الحباشه

الأردن - عمان
وسط البلد - مجمع الفحيص
هاتف : 877 4655 6 962+
فاكس : 875 4655 6 962+
خلوي : 494 5525 79 962+
ص.ب : 712577
Dar_konoz@yahoo.com
info@darkonoz.com

9789957741136

دار كنوز المعرفة العلمية
للنشر والتوزيع